

﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْبِحَارُ
فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ
وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ [الانفطار: 1 - 5]

❖ مُنَاسَبَةُ الْآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

تَظْهَرُ مُنَاسَبَةُ أَوَائِلِ سُورَةِ الْانْفِطَارِ مَعَ خَاتَمَةِ سُورَةِ التَّكْوِيرِ، فِي أَنَّهَا جَاءَتْ تَتِمَّةً لِمَشْهَدِ الْانْقِلَابِ الْكَوْنِيِّ وَبَعَثَ الْخَلَاقَ بِأَسْلُوبٍ مُوَازٍ، وَلَكِنْ بِتَصْوِيرٍ جَدِيدٍ لِمَظَاهِرِ الْهَوْلِ، يُسْتَكْمَلُ بِهِ مَا ابْتَدَأَتْهُ سُورَةُ التَّكْوِيرِ مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ.

الترابط
الموضوعي
والإيقاعي بين
سورتَي التَّكْوِيرِ
والانْفِطَارِ

وَلَمَّا ذُكِرَ فِي خَتَامِ سُورَةِ التَّكْوِيرِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۝﴾ [التكوير: 27 - 28]، أَيْ: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ تَذْكَرَةٌ تَدْعُو إِلَى الْاسْتِقَامَةِ؛ جَاءَ صَدْرُ سُورَةِ الْانْفِطَارِ؛ لِيُصَبَّ فِي الْغَرَضِ نَفْسَهُ، بِذِكْرِ مَشَاهِدِ هَذَا يَوْمِ الْجَزَاءِ الْعَظِيمِ، الَّذِي يَحْمِلُ التَّهْدِيدَ وَالْإِنذَارَ الشَّدِيدَ لِلْإِنْسَانِ الْغَافِلِ عَنْ مَصِيرِهِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، الْمُعْرِضِ عَنِ الْاسْتِقَامَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

❖ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿أَنْفَطَرَتْ﴾: (فطر) أَصْلٌ يُدُلُّ عَلَى فَتْحِ شَيْءٍ وَإِبْرَازِهِ⁽¹⁾، وَمِنْهُ الْفَطْرُ، وَهُوَ الشَّقُّ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْانْفِلَاقِ وَالْانْصِدَاعِ، وَقِيْدَهُ بَعْضُهُمْ بِأَنَّهُ الشَّقُّ الْأَوَّلُ، وَالْجَمْعُ (فُطُورٌ)، وَهِيَ الشَّقُوقُ وَالصَّدُوعُ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝﴾ [الملك: 3]⁽²⁾، وَقَطَرَ اللَّهُ الْخَلْقَ، أَيْ: خَلَقَهُمْ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ، وَابْتَدَأَ صَنْعَةَ الْأَشْيَاءِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: فطر.

(2) الزبيدي، تاج العروس: (فطر).

كَأَنَّهُ شَقَّ ظِلْمَةَ الْعَدَمِ بِإِيجَادِهِمَا⁽¹⁾، وَيُقَالُ: (فَطَرْتُ الشَّيْءَ): شَقَقْتُهُ⁽²⁾، وَانْفَطَرَ الثَّوْبُ، وَتَفَطَّرَ، أَي: انشَقَّ، وَتَفَطَّرَتِ الْجِبَالُ وَالْأَرْضُ: انْصَدَعَتْ⁽³⁾.

(2) ﴿أَنْتَثَرْتُ﴾: (نثر) أَصْلُ يَدُلُّ عَلَى إِقَاءِ شَيْءٍ مُتَفَرِّقٍ⁽⁴⁾، فَالَنْثَرُ هُوَ تَفْرِيقُ الشَّيْءِ الْمَتَمَاسِكِ أَوْ الْمَنْظُومِ عَلَى وَجْهِ التَّبَعِثِ وَالتَّسَاقُطِ غَيْرِ الْمُنْتَظَمِ، وَالنَّثَرُ: رَمَيْكَ الشَّيْءِ بِيَدِكَ مُتَفَرِّقًا⁽⁵⁾، فَيُقَالُ: (نَثَرْتُ الدُّرَّ): إِذَا فَرَّقْتَهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ مَنْظُومًا فِي سِلْكٍ⁽⁶⁾، وَيُقَالُ: (نَثَرَ الرِّيحُ الْغُبَارَ): إِذَا ذَرَّتَهُ، وَبَدَّدَتْهُ، وَانْتَشَرَ، فَمَعْنَى انْتِثَارِ الْكَوَاكِبِ فِي الْآيَةِ: تَسَاقَطَتْ، وَتَفَرَّقَتْ، وَتَنَاثَرَتْ مِنْ مَوَاضِعِهَا فِي السَّمَاءِ عَلَى غَيْرِ نِظَامٍ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُنْضَبِطَةً بِمَسَارٍ مُحَدَّدٍ، وَمَرْبُوطَةً بِقَوَانِينٍ مُحْكَمَةٍ.

(3) ﴿فَجَرَّتْ﴾: (فجر) أَصْلُ يَدُلُّ عَلَى الشَّقِّ الْوَاسِعِ وَالسَّيْلَانِ وَالانْفِجَارِ بِقُوَّةٍ، يُقَالُ: (فَجَرَّتِ الْمَاءُ)، أَي: شَقَقَتْ الْأَرْضَ حَتَّى سَالَ مِنْهَا الْمَاءُ بَوْفَرَةٍ، وَ(الْفَجِيرُ) إِطْلَاقُ الشَّيْءِ الْمَحْبُوسِ؛ لِيَتَدَفَّقَ بِغَزَارَةٍ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَجَرَّتْ﴾ يُفِيدُ أَنَّ الْبَحَارَ قَدْ شَقَّتْ أَرْجَافُهَا، وَتَدَفَّقَ مَآوُهَا.

(4) ﴿بُعْثَرْتُ﴾: (بعثر) أَصْلُ يَدُلُّ عَلَى تَفْرِيقِ الشَّيْءِ الْمُسْتَقَرِّ أَوْ تَقْلِيلِهِ بِلا نِظَامٍ⁽⁷⁾، يُقَالُ: (بَعَثَرْتُ الشَّيْءَ)، أَي: فَرَّقْتَهُ، وَبَدَّدْتَهُ، وَ(بَعَثَرْتُ الْمَتَاعَ): إِذَا قَلَّبْتَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ، وَأَخْرَجْتَ مَا فِيهِ⁽⁸⁾، وَ(بَعَثَرْتُ الْأَرْضَ): شَقَّهَا، وَأَثَارَ مَا تَحْتَهَا، فَالْمُرَادُ بِبَعَثَرَةِ الْقُبُورِ فِي الْآيَةِ: قَلْبُهَا وَإِثَارَتُهَا وَإِخْرَاجُ مَا فِيهَا.

(5) ﴿قَدَّمَ﴾: (قدم) أَصْلُ يَدُلُّ عَلَى السَّبْقِ وَالْإِرْسَالِ أَمَامَ الشَّيْءِ، فَالْقُدْمُ ضِدُّ الْآخِرِ، بِمَنْزِلَةِ قَبْلِ وَدُبَرٍ، وَرَجُلٌ قُدَّمَ: مُقْتَحِمٌ لِلْأَشْيَاءِ يَتَقَدَّمُ النَّاسُ، وَبِمُضِيِّ فِي الْحَرْبِ قُدَّمَ؛ وَمُقَدَّمٌ نَقِيضُ مُؤَخَّرٍ، وَيُقَالُ: (قَدَّمَ الشَّيْءَ)، أَي: أَرْسَلَهُ أَمَامَهُ، أَوْ فَعَلَهُ مُبَكَّرًا⁽⁹⁾.

(1) الخليل، العين: (فطر).

(2) ابن سيده، الحکم: (فطر).

(3) الخليل، العين: (فطر).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: نثر.

(5) الخليل، العين: (نثر).

(6) الزمخشري، أساس البلاغة: (نثر).

(7) محمد جبل، العجم الاشتقاقي للؤصل: (بعثر).

(8) الزبيدي، تاج العروس: (بعثر).

(9) الخليل، العين: (قدم).

فمَعْنَى ﴿قَدَمَتْ﴾: ما أَسْلَفَتْهُ النَّفْسُ مِنْ أَعْمَالٍ فِي حَيَاتِهَا، فَأَوْدَعَتْهُ فِي سِجْلِهَا؛ لِيَكُونَ بَيْنَ يَدَيْهَا يَوْمَ الْحِسَابِ.

(6) ﴿وَأَخَّرَتْ﴾: (أخر) أصلٌ يَدُلُّ على التَّراخي والوقوع بعد الشيء في الزمان أو في المرتبة، خلافاً للتَّقدُّم، يُقال: (أخَّرَ الأمرُ)؛ إذا جَعَلَهُ فِي مَوْضِعٍ مُتَأَخِّرٍ، أو أَجَّلَهُ، ويُقال: (أخَّرَ العملَ)؛ إذا لم يُبادِرْ إليه، وَتَرَكَه⁽¹⁾.

❁ الْمَغْنَى الإِجْمَالِي:

تَذَكَّرْ هَذِهِ الْآيَاتُ مَجِيءَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي يَنْفَرُطُ قَبْلَهُ عَقْدُ نِظَامِ الْكَوْنِ، وَتَحْتَلُّ مَوَازِينُهُ، بِتَغْيِيرِ مَعَالِمِ الْكَوْنِ كُلِّهَا، فَتَنْفَطِرُ السَّمَاءُ، وَتَتَبَدَّدُ نَجُومُهَا كَأَنَّهَا حَبَّاتُ عِقْدٍ، قُطِعَ سِلْكُهُ، وَتَفْجَرُ الْبِحَارُ، فَتَخْرُجُ حُدُودُهَا، وَتَقِيضُ⁽²⁾، وَتَصِيرُ مَاءً غَامِراً، وَتُقَلَّبُ الْقُبُورُ، فَيُخْرَجُ مَنْ فِيهَا لِلْحِسَابِ، عِنْدَئِذٍ يَجِدُ كُلُّ إِنْسَانٍ نَفْسَهُ مُوَاجِهًا بِأَعْمَالِهِ، فَيُذَرِّكُ مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلٍ، وَمَا تَرَكَ بَعْدَهُ مِنْ أَثَرٍ، فَالآيَاتُ تُصَوِّرُ بِإِيجَازٍ مُبْهِرٍ مَا يَحْدُثُ لِلْكَوْنِ مِنْ انْهِيَارٍ وَانْكِشَافٍ مَخْبِئِ الْأَعْمَالِ، وَتُثَبِّتُ أَنَّ الْمُؤَقَّفَ لَا مَفَرَّ مِنْهُ، فَإِنَّ النَّفْسَ سَتَعَلَّمُ حِينَئِذٍ - عِلْمًا لَا يُمْكِنُ لَهَا انْكَارُهُ - جَمِيعَ مَا اقْتَرَفَتْهُ، وَمَا أَهْمَلَتْهُ، أَوْ أَخَّرَتْهُ.

❁ الإِبْضَاحُ اللَّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بِرَاعَةِ الْمَطْلَعِ بِأَسْلُوبِ الشَّرْطِ:

مِنْ بَدِيعِ صَنِيعِ التَّعْبِيرِ الْقُرْآنِيِّ أَنْ جَاءَ مَطْلَعُ هَذِهِ السُّورَةِ عَلَى أَسْلُوبِ الشَّرْطِ الْمَبْدُوءِ بِـ (إذا) فِي تَوَالٍ مُتَعاقِبٍ لِمَشَاهِدِ مُرَوِّعَةٍ مِمَّا يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾ ① وَ﴿إِذَا الْكُوكُوبُ أُنثَرَتْ﴾ ② وَ﴿إِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ ③ وَ﴿إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾، فَكَانَ ذَلِكَ مُؤْذِنًا

مَشَاهِدُ الانْفِطَارِ
انْهِيَاؤُ الْكَوْنِ
وَانْكِشَافُ
الصَّمِيرِ

تَهْوِيلُ الْمَقَامِ
وَتَشْوِيقُ
السَّامِعِ لِمَا
سَيُذَكَّرُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخر).

(2) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 710.

بَهْوِيلِ الْمَقَامِ، وَتَشْوِيقِ السَّامِعِ لِمَا سَيَأْتِي بَعْدَهُ، فَإِنَّ اجْتِمَاعَ أَرْبَعَةِ جُمَلٍ شَرْطِيَّةٍ مُتَوَالِيَةٍ، كُلُّهَا تَفْتَحُ بـ (إذا) يَرْبِطُ أَجْزَاءَ الْكَلَامِ رَبْطًا يَظْهَرُ فِيهِ شِدَّةُ التَّلَازُمِ بَيْنَ فِعْلِ الشَّرْطِ وَجَوَابِهِ، وَيَمْنَحُ السِّيَاقَ تَوَثُّرًا تَصَاعُدِيًّا، وَيَهَيِّئُ النَّفْسَ لِلتَّأَمُّلِ فِي عَظَمَةِ الْحَدَثِ، فَالافتتاح به مُشَوِّقٌ لِمَا يَرُدُّ بَعْدَهَا مِنْ مُتَعَلِّقِهَا، الَّذِي هُوَ جَوَابُ مَا فِي (إذا) مِنْ مَعْنَى الشَّرْطِ⁽¹⁾، وَهُوَ افْتِتَاحٌ مُشَابِهٌ لِمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ التَّكْوِينِ.

يُؤَكِّدُ ذَلِكَ أَنَّ جَوَابَ الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ﴾ جَاءَ مُوجِزًا فَاصِلًا؛ لِيُقَيِّدَ أَنَّ تِلْكَ التَّحَوُّلَاتِ الْكُونِيَّةَ الرَّاهِبَةَ كُلُّهَا؛ لِتَهْيِئَةِ مَشْهَدٍ يَجْدُ فِيهِ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ فِي مَوْضِعِ الْمُحَاسَبَةِ، فَأُسْلُوبُ الشَّرْطِ هُنَا جَاءَ لِلتَّرْتِيبِ الزَّمَنِيِّ وَالتَّمْهِيدِ النَّفْسِيِّ، فَإِنَّ (إذا) تُقَيِّدُ وَقْعَ الشَّرْطِ، أَوْ تُؤَدِّنُ بَوَقُوعَهُ، وَتُرْتَّبُ الْجَوَابَ عَلَيْهِ⁽²⁾، فَكَانَ مِنْ بَابِ تَشْوِيقِ الْمُنْتَظَرِ، وَتَهْوِيلِ الْمَصِيرِ، مِمَّا يَنْفَقُّهُ فِيهِ التَّالِي، وَبَرْتَعَدَ لَهُ السَّامِعُ.

نُكْتَةُ اخْتِيَارِ (إِذَا) لِلشَّرْطِ:

جَاءَ الشَّرْطُ بِالْأَدَاةِ (إِذَا) فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ اُنْتَثَرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾؛ لِأَنَّهَا تُسْتَعْمَلُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى وَقْعِ شَيْءٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ الشَّيْءُ فِي الْعَادَةِ عَظِيمًا أَوْ هَائِلًا، كَمَا قَرَّرَهُ الْمُفَسِّرُونَ؛ فَإِذَا جَاءَ الْخِطَابُ بـ (إذا) فِي أَوَّلِ السُّورَةِ، كَانَ فِيهِ تَشْوِيقٌ لِلْسَّامِعِ، وَتَفْتِيحٌ لِقَلْبِهِ لِمُسْتَقْبَالِ مَا سَيَرُدُّ بَعْدَهُ، وَلَمْ تُسْتَعْمَلْ (إِنْ) الشَّرْطِيَّةُ؛ لِأَنَّهَا تُقَيِّدُ الشَّكَّ فِي وَقْعِ الشَّرْطِ، وَتُرْتَّبُ الْجَوَابَ عَلَيْهِ؛ بِخِلَافِ (إذا) فَإِنَّهَا تُقَيِّدُ وَقْعَ الشَّرْطِ، أَوْ تُؤَدِّنُ بَوَقُوعَهُ، وَتُرْتَّبُ الْجَوَابَ عَلَيْهِ⁽³⁾.

تأكيد وقوع
الأحداث
العظيمة،
وتقرير الإيمان
بיום القيامة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 170 / 30.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1 / 1331.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1 / 1331.

وَتَكَرَّرُ (إذا) في أربعِ جُمَلٍ على نَسَقٍ واحدٍ يُفِيدُ التَّراكُمَ في الهَوَائِلِ، وَيُصَوِّرُ الكَوْنِ، وَقَدْ انْقَلَبَ على وجهِهِ، فَاَنْفَطَرَتِ السَّمَاءُ، وَاَنْتَثَرَتِ الكَوَاكِبُ، وَفُجِّرَتِ الْبِحَارُ، وَبُعْثِرَتِ الْقُبُورُ، فَكَانَ الْوُجُودَ قَدْ اِنْهَدَمَ.

نُكْتَةُ دُخُولِ (إذا) على الأسماء:

دَخَلَتْ (إذا) في الآياتِ الأربعِ الأولى من السُّورةِ على أسماء: ﴿إِذَا السَّمَاءُ اَنْفَطَرَتْ﴾ ①، وَإِذَا الْكَوَاكِبُ اَنْتَثَرَتْ ②، وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ③، وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ④، والأَصْلُ أَنْ تَدْخُلَ على الفِعْلِ، مَعَ جَوَازِ دُخُولِهَا على الاسمِ بلا تَقْدِيرٍ عِنْدَ الْكُوفِيِّينَ؛ وَإِنَّمَا سَوَّغَ هَذَا التَّرَكِيبَ أَنَّ الْمُرَادَ لَيْسَ مُجَرَّدَ الشَّرْطِ الْفِعْلِيِّ، بَلِ الْإِشَارَةُ إِلَى كَوْنِ (السَّمَاءِ) فِي تِلْكَ الْحَالَةِ مَظْنَةً اِنْفِطَارٍ عَظِيمٍ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: فِي زَمَنِ اِنْفِطَارِ السَّمَاءِ، يَكُونُ كَذَا وَكَذَا... وَهَذَا مِمَّا يُفِيدُ التَّشْوِيقَ وَالتَّرْهِيْبَ، وَيُثِيرُ فِي النَّفْسِ وَقَعَ الْمَشْهَدِ الْمُرْتَقِبِ، حَتَّى إِذَا اَنْتَهَى السَّامِعُ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ كَانَ ذَلِكَ كَالصَّدْمَةِ التِّيْقِظِيَّةِ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ وَصْفِ تَقَلُّبَاتِ الْعَالَمِ وَمَظَاهِرِ الْقِيَامَةِ. وَهَذَا شَأْنُ الْجَمَلِ الَّتِي أُضِيفَ إِلَيْهَا (إذا)، وَكَانَتْ جُمَلًا مُفْتَتِحَةً بِمُسْنَدٍ إِلَيْهِ مُحْبَرٍ عَنْهُ بِمُسْنَدٍ فِعْلِيٍّ، دُونَ أَنْ يُؤْتَى بِالْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ، وَدُونَ تَقْدِيرِ أَفْعَالٍ مَحذُوفَةٍ قَبْلَ الْأَسْمَاءِ: أَنْ تَكُونَ لِقَصْدِ الْاهْتِمَامِ بِالْمُسْنَدِ إِلَيْهِ، وَتَقْوِيَةِ الْخَبَرِ⁽¹⁾.

دَلَالَةُ تَقْدِيمِ «السَّمَاءُ»:

تَقْدِيمُ «السَّمَاءِ» على فِعْلِهَا «اَنْفَطَرَتْ»، وَكُلُّ مُسْنَدٍ إِلَيْهِ على مُسْنَدِهَا فِي جَمَلِ الشَّرْطِ، مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ اَنْفَطَرَتْ﴾ ①، وَإِذَا الْكَوَاكِبُ اَنْتَثَرَتْ ②، وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ③، وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ④، جَاءَ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَوْجِيهِ الْعِنَايَةِ إِلَى الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ:

تَحْقِيقُ الْمَشَاهِدِ
الْمُصَوَّرَةِ؛ لِتَأْثِيرِ
الْمَعَانِي الْمُرْتَبَةِ

إِفَادَةُ الْاهْتِمَامِ
بِتِلْكَ الْأَخْبَارِ
الْمُجْعُولَةِ
عَلَامَاتٍ لِيَوْمِ
الْقِيَامَةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30 / 170.

تَعْظِيمًا لِلشَّانِ، وَتَهْوِيلًا لِلْحَدَثِ الَّذِي سَيَجْرِي عَلَيْهَا، فَإِنَّ انْفِطَارَ السَّمَاءِ أَمْرٌ جَلٌّ، وَمَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ انْقِلَابِ نِظَامِ الْكَوْنِ، وَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ فِي أَسْلُوبِ الْعَرَبِ عَلَى تَقْدِيمِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ؛ إِذَا أُرِيدَ التَّفَاتُ النَّظَرِ إِلَيْهِ، خُصُوصًا فِي مَقَامِ التَّرْهيبِ أَوْ التَّفْجِيعِ، وَفِي ذَلِكَ مَا يُفِيدُ أَيْضًا مِنَ الْإِيْمَاءِ إِلَى أَنَّ السَّمَاءَ، وَإِنْ كَانَتْ فِي نَفُوسِ النَّاسِ رَمَزًا لِلرَّفْعَةِ وَالثَّبَاتِ، فَإِنَّهَا لَا تَثْبُتُ أَمَامَ أَمْرِ اللَّهِ يَوْمَ تَتَقَلَّبُ الْمَوَازِينُ، وَيَتَقَلَّبُ نِظَامُ الْعَالَمِ، وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي الْجُمْلِ الثَّلَاثَةِ الْمَعْطُوفَةِ عَلَى هَذِهِ.

دَلَالَةُ التَّعْرِيفِ:

تَعْظِيمُ الْمَشْهَدِ
وَتَهْوِيلُهُ

فِي تَعْرِيفِ لَفْظِ السَّمَاءِ بِ(ال) فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ دَلَالَةٌ عَلَى الْعَهْدِ الذِّهْنِيِّ؛ فَالسَّمَاءُ الْمَعْرُوفَةُ فِي أَذْهَانِ النَّاسِ - الَّتِي تُظَلِّمُهُمْ، وَيَرْفَعُونَ إِلَيْهَا أَبْصَارَهُمْ - لَا تَحْتَاجُ إِلَى تَعْرِيفٍ آخَرَ؛ لِأَنَّهَا مَعْلُومَةٌ بِبِدَاهَةِ الْإِدْرَاكِ، وَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْعَهْدِ الْحُضُورِيِّ؛ لِأَنَّ السَّمَاءَ الدُّنْيَا حَاضِرَةٌ مُشَاهِدَةٌ مُحْسُوسَةٌ⁽¹⁾. وَتَعْرِيفُ لَفْظِ السَّمَاءِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ يُفِيدُ التَّعْظِيمَ وَالتَّهْوِيلَ؛ إِذِ انْفِطَارُهَا لَيْسَ بِأَمْرٍ هَيِّنٍ، بَلْ هُوَ نَقْضٌ لِبِنَاءِ الْكَوْنِ، وَانْهِيَارٌ لِمَا يَظُنُّهُ النَّاسُ ثَابِتًا لَا يَتَغَيَّرُ، فَالتَّعْرِيفُ زَادَ فِي رَهْبَةِ الْمَنْظَرِ، وَأكَّدَ حَقِيقَةَ الْحَدَثِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ: (سَمَاءً)، بَلْ قَالَ: ﴿السَّمَاءُ﴾، فَأَشَارَ إِلَى الْمَشَاهِدِ الْمَعْلُومِ، السَّقْفِ الْعَظِيمِ، وَجَعَلَ انْفِطَارَهُ هُوَ الْبِدَايَةَ لِمَا سَيَتْلُوهُ مِنْ تَغْيِيرَاتٍ كَوْنِيَّةٍ، وَهَذَا التَّعْرِيفُ يُفِيدُ أَيْضًا الْإِشَارَةَ إِلَى اسْتِحْضَارِ صُورَةِ السَّمَاءِ، كَمَا هِيَ فِي أَيَّامِ الدُّنْيَا؛ لِيَكُونَ انْفِطَارُهَا فِي الْخَيَالِ أَشَدَّ وَقَعًا، فَيَزِدَادَ الْخَوْفُ وَالتَّرَقُّبُ فِي نَفْسِ السَّامِعِ.

(1) ابن هشام، للغني: 1/ 49 - 50، والرضي، شرح الرضي على الكافية: 2/ 147.

دَلَالَةُ الْإِفْرَادِ:

في إفراد السَّمَاءِ دُونَ جَمْعِهَا: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾ غَرَضُ بَلَاغِيٍّ يَتَّصِلُ بِطَبِيعَةِ التَّنْزِيلِ وَسِيَاقِ التَّهْوِيلِ، فَإِنَّ السَّمَاءَ فِي الْعَرَفِ الْعَرَبِيِّ لَا يُرَادُ بِهَا عِدَّةُ سَمَاوَاتٍ مُحَسَّوَسَةٍ، بَلْ يُرَادُ بِهَا الْجَهَةُ الْعُلْيَا الَّتِي تَظْهَرُ فَوْقَ الْبَصَرِ، وَهِيَ الَّتِي تَظْهَرُ فِيهَا السُّحُبُ وَالنُّجُومُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، فَهِيَ فِي الْمَعْهُودِ وَاحِدَةٌ فِي النَّظَرِ، وَمُفْرَدَةٌ فِي الْإِدْرَاكِ.

التَّوَسُّلُ بِالْإِدْرَاكِ
الْبَصَرِيِّ إِلَى
التَّهْوِيلِ
الْوُجْدَانِيِّ

وَأَنَّ الْقُرْآنَ لَمَّا أَرَادَ التَّخْوِيفَ وَتَصْوِيرَ انْقِلَابِ الْكَوْنِ، جَاءَ بِذِكْرِ السَّمَاءِ بِالْمُفْرَدِ؛ لِيُشِيرَ إِلَى الْجَهَةِ الْمَأْلُوفَةِ لِلنَّاسِ، الَّتِي يُرْفَعُ إِلَيْهَا النَّظَرُ، وَيَسْتَقَرُّ فِيهَا التَّخَيُّلُ، فَلَوْ قِيلَ: (السَّمَاوَاتُ)؛ لَذَهَبَ الذَّهْنُ إِلَى الْمُتَعَدِّدِ الْغَامِضِ الَّذِي لَا يُحِيطُ بِهِ الْوَصْفُ، وَلَكِنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا تَصْوِيرُ انْفِطَارِ السَّمَاءِ الْمَرْتَبَةِ؛ لِأَنَّهُ أَبْلَغُ فِي التَّهْوِيلِ، وَأَقْرَبُ إِلَى الْوُقُوعِ فِي النَّفْسِ.

بَلَاغَةُ اسْتِعْمَالِ مَادَّةِ الْانْفِطَارِ:

إِنَّ اخْتِيَارَ فِعْلِ الْانْفِطَارِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾ اخْتِيَارٌ دَقِيقٌ الدَّلَالَةِ، عَظِيمُ الْبَلَاغَةِ، فَالْانْفِطَارُ يَدُلُّ عَلَى بَدَايَةِ الْانْشِقَاقِ بِالتَّمَرُّقِ وَالْانْفِرَاجِ، وَالسَّمَاءُ فِي الْمَعْهُودِ هِيَ الْقِبْلَةُ الْعُلْيَا لِلنَّظَرِ، ثَابِتَةٌ، سَاكِنةٌ، وَلَمْ يَأْلَفِ النَّاسُ فِيهَا تَغْيِيرًا؛ فَإِذَا أُسْنِدَ إِلَيْهَا فِعْلٌ يَدُلُّ عَلَى الْانْقِلَابِ كَالْانْفِطَارِ، وَهُوَ مِمَّا يُوَصَفُ بِهِ الْجِسْمُ الضَّعِيفُ إِذَا تَشَقَّقَ؛ كَانَ ذَلِكَ تَصْوِيرًا لَانْهِيَامِ النِّظَامِ الْكَوْنِيِّ الْمَأْلُوفِ فِي أَقْوَى مَعَالِمِهِ.

دَلَالَةُ صِيغَةِ الْمَطَاوَعَةِ:

جَاءَ الْفِعْلُ (انْفَطَرَ) فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾ عَلَى صِيغَةِ (انْفَعَلَ)، وَهِيَ صِيغَةٌ تَدُلُّ عَلَى الْوُقُوعِ وَالْانْفِعَالِ الذَّاتِيِّ، فَمَعْنَى الْفِعْلِ ﴿انْفَطَرَتْ﴾ أَنَّ السَّمَاءَ انْشَقَّتْ، وَتَصَدَّعَتْ ذَاتِيًّا، مِنْ

دَقَّةُ التَّعْبِيرِ
عَنِ أَوَّلِ انْهِيَاكِ
النِّظَامِ الْكَوْنِيِّ
قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

تَرْوِيعُ النَّظَرِ إِلَى
انْفِطَارِ السَّمَاءِ

غَيْرِ نِسْبَةِ الْفِعْلِ إِلَى فَاعِلٍ مُبَاشِرٍ فِي الظَّاهِرِ، وَفِي هَذِهِ الصِّيغَةِ تَمَحِيصٌ لِنَظَرِ الْمُخَاطَبِ إِلَى الْفِعْلِ نَفْسِهِ؛ إِذَا نَا بَعْظُمُ الْهَوْلِ، وَتَهْوِيلًا لِمَشْهَدِ الْانْفِطَارِ.

وَفِي اسْتِعْمَالِ صِيغَةِ الْمُطَاوَعَةِ بِلَاغَةٌ تَتَجَلَّى أَيْضًا فِي تَصْوِيرِ مَا لَا يُعْهَدُ فِيهِ الْحَدُثُ - كَالسَّمَاءِ - بِمَا يُشَبِّهُ الْكَائِنَ الْحَيَّ، فَيَزْدَادُ الْمُنْظَرُ هَوْلًا، وَيَنْعَاطُظُ فِي النَّفْسِ شُعُورُ الْخَطْبِ، فَالْتَّشْخِيصُ الْبَيَانِيُّ يُصَوِّرُ الْجَمَادَ بِصِفَةِ الْفِعْلِ وَالْانْفِعَالِ؛ لِتَجَسُّدِ الْمَعَانِي، وَتَحْضُرِ فِي ذِهْنِ السَّامِعِ كَأَنَّهَا مَرْتَبَةٌ، وَهَذَا لَهُ وَقَعٌ بَيَانِيٌّ شَدِيدُ التَّأْثِيرِ، يَهَيِّئُ النَّفْسَ لِتَلْقَى التَّغْيِيرَاتِ الْكُبْرَى يَوْمَ الدِّينِ.

وَفِي اسْتِعْمَالِ الْمُطَاوَعَةِ تَصْوِيرٌ بَيَانِيٌّ لَانْفِعَالِ السَّمَاءِ، كَأَنَّهَا تَنْفَطِرُ، وَتَشْتَقُّ عَنْ قَهْرٍ، فَهِيَ حَالَةٌ تُخَالِفُ مَا طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا السَّمَاءُ فِي نِظَامِ الدُّنْيَا مِنَ التَّمَاسُكِ وَالْإِمْسَاكِ، وَذَلِكَ أَلْبَغُ فِي تَهْوِيلِ الْمَشْهَدِ، وَتَحْوِيلِ النَّظَرِ مِنْ مَشْهَدِ الْجَمَالِ الْحَاضِرِ إِلَى مَشْهَدِ الرُّعْبِ وَالتَّخْوِيفِ الْقَادِمِ.

دَلَالَةُ التَّغْيِيرِ بِصِيغَةِ الْمَاضِي:

إِنَّ التَّعْبِيرَ عَنِ الْأَحْدَاثِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ بِصِيغَةِ الْمَاضِي - كَانْفِطَارِ السَّمَاءِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾ - هُوَ مِنْ أَسَالِيبِ الْعَرَبِ الْبَيَانِيَّةِ الَّتِي يُرَادُ بِهَا تَصْوِيرُ الْحَادِثَةِ الْآتِيَةِ فِي صُورَةِ الْوَاقِعِ الْمُنْجَزِ، تَحْقِيقًا لَوُقُوعِهَا⁽¹⁾، وَتَأْكِيدًا لِثُبُوتِهَا، وَزِيَادَةً فِي تَهْوِيلِهَا؛ لِذَلِكَ جَاءَ التَّعْبِيرُ بِهِ تَعَالَى هُنَا - وَإِنْ كَانَ مُتَعَلِّقًا بِ (إِذَا)، وَهِيَ أَدَاةُ شَرْطٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ - لِتِلْقَايِ السَّامِعِ خَبْرًا وَاقِعًا لَا يَحْتَمِلُ التَّرَدُّدَ، وَإِنْ كَانَ وَقُوعُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، فَهُوَ مِمَّا لَا مَحِيصَ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ قَدَرَهُ اللَّهُ أَزَلًا.

انْفِطَارُ السَّمَاءِ
حَقِيقَةٌ وَاقِعَةٌ لَا
تَقْبَلُ الشَّكَّ

(1) الرَّفْيِيُّ، شَرْحُ الرَّفْيِيِّ عَلَى الْكَافِيَةِ: 2/ 250.

واستعمال صيغة الماضي في الآية من باب تجسيد المعنى وتصويره في مقام التخويف والإنذار، كأنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ، وَقَدْ انْفَطَرَتْ، فَتَتَحِيلُ الْأَذْهَانُ الْمَوْقِفَ، وَتَشْهَدُهُ.

توجيه التشابه اللفظي:

إِنَّ التَّفَاوُتَ فِي التَّعْبِيرِ بَيْنَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْانْفِطَارِ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾، وَبَيْنَ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْانْشِقَاقِ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ (1) مَبْنِيٌّ عَلَى التَّنَوُّعِ فِي الْأُسْلُوبِ بِمَا يُنَاسِبُ سِيَاقَ كُلِّ سُورَةٍ، وَيُحَقِّقُ مَقْصِدَهَا التَّرْبُويَّ وَالتَّخْوِيفِيَّ، فِعْلُ الْانْفِطَارِ يَدُلُّ عَلَى شَقٍّ مَعَ تَمَرُّقٍ وَتَفْطُرٍ، كَمَا يُسْتَحْدَمُ فِي شَقِّ الْقَشْرَةِ أَوْ الْغُلَافِ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى خَلَلٍ يَبْدَأُ فِي الْبِنْيَةِ مِمَّا يُبْذَرُ بَانْهِيَارٍ شَامِلٍ، أَمَّا فِعْلُ الْانْشِقَاقِ؛ فَهُوَ أَقْرَبُ إِلَى مَعْنَى الْانْفِصَالِ وَالانْقِسَامِ، بِلَا ضَرُورَةٍ التَّمَرُّقِ؛ فَهُوَ أَخْفَ فِي الْوَقْعِ، وَأَقْلُ فِي التَّهْيِيجِ.

فَعِلٌ مَجِيءُ الْفِعْلِ ﴿انْشَقَّتْ﴾ (2) [الانشقاق: 1] فِي بَدَايَةِ سُورَةِ الْانْشِقَاقِ، الَّتِي تَتَضَمَّنُ تَفَاصِيلَ حِسَابِ الْعِبَادِ وَعَرَضِ أَعْمَالِهِمْ يَتَنَاسَبُ مَعَ سِيَاقِ أَقْلٍ فِي التَّوْبِيخِ وَالتَّنْبِيهِ؛ بَيْنَمَا جَاءَ الْفِعْلُ ﴿انْفَطَرَتْ﴾ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْانْفِطَارِ، الَّتِي فِي مَطْلَعِهَا أَهْوَالٌ مُتَابِعَةٌ، تَتَضَمَّنُ انْفِطَارَ السَّمَاءِ، وَانْتِثَارَ الْكَوَاكِبِ، وَتَفْجِيرَ الْبِحَارِ، وَبَعْثَرَ الْقُبُورِ، وَهُوَ تَرْتِيبٌ يُرَاعِي شِدَّةَ الْمَنْظَرِ وَتَرَاكُمَ الْفَزَعِ، فَكَانَ اسْتِعْمَالُ الْانْفِطَارِ أَوْفَقَ بِمُقْتَضَى التَّصْوِيرِ؛ لِأَنَّ الْفَطَرَ إِظْهَارُ الْحَادِثِ بِإِخْرَاجِهِ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ، فَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ دَلٌّ عَلَى إِظْهَارِ مَا لَمْ يَرَهُ النَّاسُ مِنْ قَبْلُ مِنَ التَّبَدُّلِ فِي السَّمَاءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (3) [إبراهيم: 48].

نكتة العطف:

فِي عَطْفِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ عَلَى قَوْلِهِ

مُنَاسَبَةٌ الْانْفِطَارِ
لِمَقَامِ التَّزْوِيعِ

الْتَدَرُّجُ فِي
عَرْضِ الْأَهْوَالِ،
وَتَكثِيفِ مَرَاجِلِ
انْقِلَابِ الْكَوْنِ

تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ نُكْتَةُ بَيَانِيَّةٌ دَقِيقَةٌ، هِيَ إِفَادَةٌ تَرَاكُمِ الْأَهْوَالِ، مَعَ تَرْتُّبِ الْمَشَاهِدِ فِي تَصَاعُدٍ يُرَاعِي الْإِنْفِعَالَ النَّفْسِيَّ فِي سِيَاقِ التَّهْوِيلِ وَالْإِنْذَارِ، فَالسَّمَاءُ هِيَ الْغِلَافُ الْعَظِيمُ الَّذِي تَسْتَقِرُّ فِيهِ الْكَوَكِبُ، وَإِذَا انْفَطَرَ الْغِلَافُ؛ كَانَ انْتِثَارُ مَا فِيهِ مُتَوَقَّعًا، فَجَاءَ ذِكْرُ انْتِثَارِ الْكَوَكِبِ بَعْدَ انْفِطَارِ السَّمَاءِ عَلَى وَجهِ التَّرْتُّبِ الطَّبِيعِيِّ، كَأَنَّ الْحَدَّثَ الثَّانِي تَفْصِيلٌ لِمَا يَتَضَمَّنُهُ الْأَوَّلُ.

نُكْتَةُ تَكَرُّارٍ (إِذَا):

استِغْلَالُ كُلِّ
مَشْهَدٍ بِذَاتِهِ،
لِهَؤُلِهِ وَخُطُورَتِهِ

إِنَّ فِي تَكَرُّارِ أَدَاةِ الشَّرْطِ (إِذَا) فِي كُلِّ جُمْلَةٍ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَكِبُ اُنْتَثَرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ نُكْتَةُ بَيَانِيَّةٌ رَفِيعَةٌ، هِيَ إِفَادَةٌ تَفْصِيلِ الْمَهَاوِلِ، وَتَهْوِيلِ الْمَنَاطِرِ، وَتَصْعِيدِ الْوَقْعِ فِي نُفُوسِ السَّامِعِينَ؛ فَلَوْ اقْتَصَرَ عَلَى ذِكْرِهَا فِي الْمَوْضِعِ الْأَوَّلِ، وَعُطِفَتِ الْجُمْلُ بَعْدَهَا بِوَاوِ الْعَطْفِ فَقَطْ؛ لَذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الرَّهْبَةِ، وَلَانْدَمَجَتِ الْمَعَانِي فِي بَعْضِهَا، وَلَمَّا ظَهَرَتْ كُلُّ حَادِثَةٍ فِي اسْتِغْلَالِهَا وَخُطُورَتِهَا، فَتَكَرَّرَ (إِذَا) فِي كُلِّ جُمْلَةٍ يُفِيدُ التَّجْدِيدَ فِي الْمَعْنَى، وَيُثِيرُ التَّرْقُّبَ لِمَا بَعْدَهُ، فَتَكُونُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ كَأَنَّهَا طَامَّةٌ وَحْدَهَا، مُسْتَقِلَّةٌ عَنِ الْأُخْرَى فِي الْفَرْعِ وَالْخَطَرِ.

وَفِي تَكَرُّارِ (إِذَا) تَصْدِيرٌ لِكُلِّ آيَةٍ بِالْفِ الْمَدِّ، مِمَّا يُنَاسِبُ فَاصِلَةَ كُلِّ بِالرَّاءِ الْمَفْتُوحَةِ ثُمَّ التَّاءِ السَّاكِنَةِ الشَّدِيدَةِ، فَيَقَعُ كُلُّ حَدَّثٍ فِي نُفُوسِ السَّامِعِينَ بِصَدْمَتِهِ الْمُسْتَقِلَّةِ، فَتَتَرَاكُمُ الصُّورُ فِي الذَّهْنِ، وَتَتَزَاحَمُ، حَتَّى يَبْلُغَ الْوَعِيدُ غَايَتَهُ.

دَلَالَةُ تَعْرِيفِ «الْكَوَكِبِ»:

استِحْضَارُ الْمَرْثِي
لِلْمُؤَلُوفِ لِتَعْظِيمِ
اِخْتِلَالِ نِظَامِهِ

جَاءَ لَفْظُ «الْكَوَكِبِ» مُعَرِّفًا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْكَوَكِبُ اُنْتَثَرَتْ﴾؛ لِيُفِيدَ الْعَهْدَ الذَّهْنِيَّ، أَيِ: الْكَوَكِبِ الَّتِي يَعْرِفُهَا النَّاسُ،

وَيَرَوْنَهَا فِي السَّمَاءِ لَيْلًا، وَيَتَّخِذُونَهَا دَلَالِيلَ وَمَوَاقِيَتَ وَمَظَاهِرَ جَمَالٍ
وِنِظَامٍ، ف(ال) فِي الْكَوَكِبِ لِتَعْرِيفِ الْعَهْدِ، وَتُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ هُوَ
مَا كَانَ مُتَعَارَفًا فِي الْأَذْهَانِ، لَا كَوَاكِبَ غَامِضَةً أَوْ بَعِيدَةً غَيْرَ مَرْتَبِيَّةٍ،
وَهَذَا التَّعْرِيفُ يُفِيدُ تَفْخِيمَ الْمَذْكُورِ؛ لِأَنَّ الْكَوَكِبَ مِمَّا يَتِمَادَى فِيهِ
النَّظَرُ، وَيَتَعَلَّقُ بِهِ الْوُجْدَانُ؛ فَهِيَ زِينَةُ السَّمَاءِ، وَمَوْضِعُ التَّفَكُّرِ فِي
عَظَمَةِ الْخَالِقِ.

وَرُبَّمَا أَفَادَ تَعْرِيفُ الْكَوَكِبِ الْعُمُومَ فِي الْجِنْسِ، بِاعْتِبَارِ أَنَّ جَمِيعَ
الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ جِنْسِ الْكَوَكِبِ قَدْ ائْتَتْ يَوْمَئِذٍ، الْمَرْتَبَةَ الْمَشْهُورَةَ
مِنْهَا، وَكَثِيرَةٌ غَيْرُهَا مِنَ الْكَوَكِبِ الْبَعِيدَةِ الَّتِي لَا تُدْرِكُهَا الْعَيْنُ
الْمُجَرَّدَةُ، وَلَا آلَتُ النَّظَرِ فِي السَّمَاءِ؛ تَنْبِيْهَا عَلَى أَنَّ جَمِيعَ مَا كَانَ
يَسِيرُ فِي الْفَلَكَ، وَيُهْتَدَى بِهِ فِي اللَّيْلِ قَدْ انْقَلَبَ نِظَامُهُ، فَانْتَشَرَ بَعْضُهُ
عَنْ بَعْضٍ كَأَنَّهُ حَبُّ عِقْدٍ انْقَطَعَ، فَيَكُونُ تَعْرِيفُ الْجِنْسِ هُنَا تَعْرِيفًا
لَفْظِيًّا، وَهُوَ فِي مَعْنَى النُّكْرَةِ، وَفَائِدَةُ اخْتِيَارِ التَّعْرِيفِ - مِمَّا لَا يُفِيدُهُ
التَّنْكِيرُ - اسْتِحْضَارُ الْجِنْسِ الْمَعْرُوفِ لَدَى النَّاسِ، وَإِبْرَازُ هَيْئَتِهِ
الْمَعْلُومَةِ فِي الذَّهْنِ؛ تَمْهيدًا لِلتَّهْوِيلِ بِذِكْرِ ائْتِثَارِهَا⁽¹⁾.

بِلَاغَةُ جَمْعِ ﴿الْكَوَكِبِ﴾:

أَثَرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ التَّعْبِيرَ بِجَمْعِ ﴿الْكَوَكِبِ﴾ فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَإِذَا
الْكَوَكِبُ ائْتَنَّتْ﴾ - دُونَ إِفْرَادِهَا عَلَى الْجِنْسِ، كَأَن يُقَالَ: (وَإِذَا
الْكُوكَبُ ائْتَنَّتْ) - لِنُكْتَةِ بَيَانِيَّةِ فِذَّةٍ، هِيَ إِفَادَةُ التَّعْمِيمِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُرَادُ بِهِ
وَاحِدٌ مِنْ جِنْسِهَا، بَلْ كُلُّ مَا يَدْخُلُ تَحْتَ اسْمِ الْكَوَكِبِ، كَالْكُوكِبَاتِ
وَالْأَجْرَامِ الَّتِي هِيَ عَلَى شَاكِلَةِ الْكَوَكِبِ، كَالْأَقْمَارِ وَغَيْرِهَا، فَفِي
ذَلِكَ تَصَوِيرٌ لَانْقِلَابِ النُّظَامِ السَّمَائِيِّ فِي أَشْمَلِ صَوْرِهِ، وَأَشَدِّهَا
وَقَعًا عَلَى النُّفُوسِ؛ إِذْ تَفْقَدُ السَّمَاءُ حِينَئِذٍ زِينَتَهَا، وَيَضْطَرِبُ النُّظَامُ
الَّذِي كَانَتْ تَسِيرُ عَلَيْهِ الْأَجْرَامُ، وَلَوْ أَفْرَدَ الْمَذْكُورُ؛ لَانْصَرَفَ الذَّهْنُ

التَّهْوِيلُ
والتَّعْمِيمُ
والتَّنَاسُقُ
البَيَانِي

(1) السَّامِرَاتِي، معاني النحو: 1/ 117

إِلَى نَوْعٍ خَاصٍّ، أَوْ مَثَلٍ مَفْرُوضٍ، أَمَّا الْجَمْعُ؛ فَقَدْ جَاءَ فِي مَقَامِ التَّهْوِيلِ وَالْعُمُومِ، يُوَافِقُ نَظِيرَهُ فِي السَّمَاءِ وَالْبَحَارِ وَالْقُبُورِ؛ لِيَكُونَ السِّيَاقُ كُلُّهُ فِي صُورَةٍ كَوْنِيَّةٍ شَامِلَةٍ.

وَجَمْعُ ﴿الْكَوَاكِبِ﴾ يُفِيدُ التَّكَاثُرَ وَالتَّفَرُّقَ؛ لِيُصَوِّرَ اللَّفْظُ مَشْهَدًا كَوْنِيًّا تَتَنَاضَرُ فِيهِ كَوَاكِبُ السَّمَاءِ كُلُّهَا، كَأَنَّهَا عَقْدٌ انْفَصَمَ، فَتَبَدَّدَتْ حَبَّاتُهُ فِي الْفَضَاءِ، فَالْجَمْعُ يَتَنَاسَبُ مَعَ فِعْلِ الْإِنْتِثَارِ، الَّذِي لَا يُطْلَقُ إِلَّا عَلَى مُتَعَدِّ؛ فَكَانَ الْمُرَكَّبُ الْكَلَامِيُّ فِي غَايَةِ التَّنَاسُقِ، بَيْنَ الْمُسْنَدِ وَالْمُسْنَدِ إِلَيْهِ، وَهُوَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْبَلَاغَةِ الْمُعْجَزَةِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

سِرُّ التَّغْيِيرِ بِالْكَوَاكِبِ:

انتِثَارُ الْكَوَاكِبِ
نَتِيجَةٌ لَانْكِدَارِ
النُّجُومِ

أَثَرُ الْقُرْآنِ التَّغْيِيرَ بِلَفْظِ ﴿الْكَوَاكِبِ﴾ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾؛ لِمَا يَحْمِلُهُ هَذَا التَّغْيِيرُ الْمُعْجِزُ مِنْ لَفْظَةٍ بَيَانِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ بِالْغَةِ، فَالْكَوَاكِبُ تَدُورُ فِي أَفْلَاكِ النُّجُومِ أَوْ الشُّمُوسِ، الَّتِي هِيَ مَرَكَزُ الْجاذِبِيَّةِ بِالنَّسْبَةِ لِلْكَوَاكِبِ، فَإِذَا مَاتَتِ النُّجُومُ بِانْكِدَارِهَا، فَقَدَّتْ قُدْرَتَهَا عَلَى الْجَذْبِ وَمَسَكِ كَوَاكِبِهَا، فَتَنَاضَرَتِ الْكَوَاكِبُ، كَمَا يَنْفَرِطُ الْعِقْدُ، وَيَتَبَعَثَرُ الْخَزْرُ.

وَجَاءَ اخْتِيَارُ الْكَوَاكِبِ دُونَ النُّجُومِ فِي هَذَا الْمَقَامِ؛ لِأَنَّ الْكَوَاكِبَ هِيَ الَّتِي يَتَحَيَّلُهَا النَّاسُ فِي نِظَامٍ، كَأَنَّهَا مَتَاقِيبُ فِي السَّمَاءِ، تَسِيرُ عَلَى هُدًى وَاتِّسَاقٍ؛ فَإِذَا انْتَثَرَتْ؛ كَانَ فِي ذَلِكَ تَصَوِيرٌ لَانْفِصَامِ عِقْدِ الْكَوْنِ، وَزَوَالِ الْمِيزَانِ، وَانْهِيَارِ التَّنْسِيقِ الْعَجِيبِ، فَالْفِعْلُ ﴿انْتَثَرَتْ﴾ يُنَاسِبُ مَعْنَى التَّبَعَثَرِ وَالتَّنَاضُرِ، كَمَا تَتَنَاضَرُ الدُّرَرُ مِنْ سِلْكِهَا، وَهَذَا إِلَى مَا يُتَصَوَّرُ فِي الْكَوَاكِبِ أَقْرَبُ مِنْهُ فِي النُّجُومِ؛ إِذْ لَمْ يَجْرِ الْعُرْفُ فِي تَصَوِيرِ النُّجُومِ بِمَثَلِ ذَلِكَ التَّمَثِيلِ، زِيَادَةً إِلَى انْسِجَامِهِ مَعَ الْحَقِيقَةِ الْعِلْمِيَّةِ⁽¹⁾، فَكَانَ التَّغْيِيرُ بِالْكَوَاكِبِ أَبْلَغَ فِي التَّهْوِيلِ، وَأَكْثَرَ انْسِجَامًا

(1) الصِّلح، الإعجاز العلمي، مبحث: في التفرقة بين النجم والكوكب: 171 - 177.

مَعَ الصَّوْرَةِ الْبَيَانِيَّةِ لِلْإِنْتِثَارِ، فَاتَّسَقَ الْمُسَمَّى مَعَ الْمُسْنَدِ، وَاجْتَمَعَ فِي التَّرَكِيبِ قُوَّةُ الدَّلَالَةِ وَبَلَاغَةُ التَّصْوِيرِ.

دَلَالَةُ مَادَّةِ الْإِنْتِثَارِ:

آثر القرآن الكريم استعمال فعل الانتثار في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ - دون غيرها - لما يتفرّد به هذا اللفظ من بلاغة قرآنية، فهو تصويرٌ مُحْكَمٌ لِمَشْهَدٍ كَوْنِيٍّ هَائِلٍ، إِحَالَةِ نِظَامِ السَّمَاءِ إِلَى خَرَابٍ وَاضْطِرَابٍ، فَالْفِعْلُ «انْتَثَرَتْ» بِمَعْنَى: تَسَاقَطَتْ مُتَفَرِّقَةً⁽¹⁾، فَالْإِنْتِثَارُ هُوَ تَبَدُّدُ الْأَشْيَاءِ، وَتَفَرُّقُ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ بِغَيْرِ نِظَامٍ، كَمَا تُقَالُ الْعِبَارَةُ فِي إِنْتِثَارِ الدُّرِّ عِنْدَ انْقِطَاعِ سِلْكِهِ، فَاسْتَعْمِلَتْ هَذِهِ الْمَادَّةُ فِي الْكَوَاكِبِ؛ لِتُصَوِّرَ انْحِلَالَ التَّنْظِيمِ السَّمَائِيِّ الْمُحْكَمِ بِالْجَازِبِيَّةِ، وَذَهَابِ الْبَهَاءِ وَالْجَمَالِ، وَفِيهِ رَمَزٌ إِلَى افْتِقَادِ الْهُدَى وَالْقَصْدِ، وَجَاءَ هَذَا الْوَصْفُ الْقِرَآئِيُّ؛ لِتَزِيدَ الْمَشْهَدَ تَصْوِيرًا وَجَدَّةً، فَيُخَيِّلُ السَّامِعُ الْكَوَاكِبَ، وَهِيَ تَتَطَايَرُ فِي الْفَضَاءِ، كَأَنَّهَا جَوَاهِرُ أُطْلِقَتْ مِنْ عِقْدِهَا، وَذَلِكَ أبلغُ فِي تَهْوِيلِ الْمُتَقَلِّبِ.

وَمِمَّا يُذَكِّرُ فِي سِرِّ اخْتِيَارِ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ «انْتَثَرَتْ» دُونَ (تَفَرَّقَتْ) أَوْ (تَبَعَثَرَتْ) أَوْ (زَالَتْ) - وَإِنْ كَانَ كُلُّ ذَلِكَ صَادِقًا فِي الْمَعْنَى - لَأَنَّ الْإِنْتِثَارَ لَا يَدُلُّ فَقَطْ عَلَى وَقُوعِ الْكَوَاكِبِ مُتَفَرِّقَةً⁽²⁾، بَلْ كَذَلِكَ عَلَى أَنَّهَا قَبْلَ انْتِثَارِهَا كَانَتْ مُرْتَبِطَةً بِنِظَامٍ دَقِيقٍ عَظِيمِ الشَّأْنِ، مُنْضَبِطَةً بِمَسَارٍ مُحَدَّدٍ، مُرَبَّوطةٌ بِقَوَانِينٍ مُحْكَمَةٍ، وَقَدْ اخْتِيرَ هَذَا اللفظُ الْقِرَآئِيُّ الْبَلِغُ؛ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ مَا كَانَ يُرَى فِي النِّظَامِ الْكَوْنِيِّ مِنْ تَمَاسُكٍ وَدَقَّةٍ وَجَمَالٍ فِي حَرَكَةِ الْكَوَاكِبِ، سَيُؤَوَّلُ إِلَى فَوْضَى وَانْحِلَالٍ وَتَبَعُثُرٍ تَامٍ؛ إِذَا نَا بَانْهِيَارِ السَّقْفِ الْمَحْفُوظِ، وَتَبَدُّلِ وَجْهِ السَّمَاءِ.

(1) أبو البقاء، الكَلْبَاتِ، ص: 202.

(2) الحميري اليمني، شمس العلوم: 6486 / 10.

براعة الاستعارة في ذكر الانتثار:

اختلال الجاذبية
في الفضاء،
وتفرق الكواكب
في السماء

إِسْنَادُ فِعْلِ الْإِنْتِثَارِ إِلَى الْكَوَاكِبِ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا
الْكَوَاكِبُ اُنْتَثَرَتْ﴾ "مُسْتَعَارٌ لِتَفَرُّقِ هَيِّئَاتِ اجْتِمَاعِهَا الْمَعْرُوفَةِ فِي
مَوَاقِعِهَا، أَوْ مُسْتَعَارٌ لِخُرُوجِهَا مِنْ دَوَائِرِ أَفْلَاكِهَا وَسُمُوتِهَا، فَتَبْدُو
مُضْطَرِبَةً فِي الْفَضَاءِ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ تَلُوحُ كَأَنَّهَا قَارَّةٌ، فَاِنْتِثَارُهَا
تَبَدُّدُهَا وَتَفَرُّقُ مُجْتَمَعِهَا، وَذَلِكَ مِنْ آثَارِ اخْتِلَالِ قُوَّةِ الْجَاذِبِيَّةِ الَّتِي
أُقِيمَ عَلَيْهَا نِظَامُ الْعَالَمِ الشَّمْسِيِّ"⁽¹⁾.

بلغة صيغة المطاوعة:

تجسيد مشهد
تناثر الكواكب

جاء فِعْلُ النَّثْرِ الْمُسْنَدُ إِلَى الْكَوَاكِبِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا
الْكَوَاكِبُ اُنْتَثَرَتْ﴾ بصيغة المطاوعة؛ للدلالة على الانفعال
الذاتي، فهو مِنَ الْأَسَالِبِ الْقُرْآنِيَّةِ الْبَلِيغَةِ؛ لِأَنَّهُ يُنْزَلُ الْكَوَاكِبُ
مَنْزِلَةً مِّنْ يُشْعَى الْفِعْلُ، فَكَأَنَّهَا هِيَ الَّتِي اِنْتَثَرَتْ بِنَفْسِهَا، مَعَ
أَنَّهَا مُنْتَثِرَةٌ بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِي التَّعْبِيرِ إِبْرَازٌ لِهَوْلِ الْمَشْهَدِ،
فَتُخَيِّلُ الْكَوَاكِبُ كَأَنَّهَا أَجْرَامٌ تَتَقَصَّدُ، وَتَتَبَعَثَرُ، وَتَتَنَاثَرُ بِفِعْلِهَا،
وَهُوَ تَصْوِيرٌ يُضَاعِفُ مِنْ إِثَارَةِ الرَّهْبَةِ وَالْدَّهْشَةِ، فَلَمْ يَقِلِ
السِّيَاقُ: (وَإِذَا الْكَوَاكِبُ نُثِرَتْ) عَلَى صِيغَةِ الْمَبْنِيِّ لِأَنَّ لَمْ يُسَمَّ
فَاعِلُهُ، بَلْ جَاءَ الْإِسْنَادُ إِلَيْهَا ذَاتًا بِصِيغَةِ الْمَطَاوَعَةِ؛ لِيَتَّسِقَ ذَلِكَ
مَعَ سِيَاقِ الْكَوَاكِبِ الْمُنْهَارَةِ وَالْقَوَى الْكَبِيرَةِ الَّتِي تَتَفَكَّكُ أَمَامَ
الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ.

وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ التَّعْبِيرِ سَبَقَ فِي صَدْرِ السُّورَةِ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ
انْفَطَرَتْ﴾، وَجَاءَ فِي غَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَصِفُ التَّقْلِبَاتِ الْكُونِيَّةَ
الْمَهُولَةَ، الَّتِي تَصْحَبُ مَجِيءَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا
السَّمَاءُ اُنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: 1]، ﴿وَإِذَا النُّجُومُ اُنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: 2]،
فَهِىَ تُصَوِّرُ الْأَجْرَامَ كَأَنَّهَا ذَوَاتٌ تَتَحَرَّكُ، وَتَتَصَرَّفُ، فَتُصْبِحُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 171/30.

أَطْرَافُ الْكَوْنِ كُلِّهَا فِي أَنْفِعَالٍ وَتَغْيِيرٍ؛ لِيَتَهَيَّأَ الذَّهْنُ لِمُسْتَقْبَالِ مَشْهَدِ
يَوْمِ الدِّينِ بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ جَلَالٍ وَهَوْلٍ.

دَلَالَةُ صِيغَةِ الْمَاضِي:

جَاءَ التَّعْبِيرُ الْقُرْآنِيُّ عَنِ انْتِثَارِ الْكَوَاكِبِ بِصِيغَةِ الْمَاضِي فِي قَوْلِ
اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾؛ جَرِيًّا عَلَى الْمَعْهُودِ مِنَ الْبَلَاغَةِ
الْقُرْآنِيَّةِ، وَهُوَ الْإِخْبَارُ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَائِنٌ لَا مُحَالَةَ، حَتَّى
كَأَنَّهُ وَقَعَ، وَفُرِغَ مِنْهُ⁽¹⁾، فَهُوَ مَاضٍ فِي لَفْظِهِ، مُسْتَقْبَلٌ فِي مَعْنَاهُ، وَهَذَا مَا
يُسَمِّيهِ الْبَيَانِيُّونَ: تَصْوِيرُ الْمُسْتَقْبَلِ فِي صُورَةِ الْمَاضِي تَحْقِيقًا وَتَهْوِيلًا،
فَإِذَا سَمِعَ السَّامِعُ: ﴿الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ تَصَوَّرَهَا مَشْهُدًا مُنْجَزًا، كَأَنَّهُ
قَدْ شَاهَدَهُ عَيْنًا، وَهُوَ أَبْلَغُ فِي الْإِنْذَارِ وَأَقْوَى فِي تَحْرِيكِ الْوُجْدَانِ.

دَلَالَةُ الْعَطْفِ بِالْوَاوِ:

عَطَفَ النَّظْمُ الْقُرْآنِيُّ تَفْجِيرَ الْبِحَارِ عَلَى مَا سَبَقَ مِنْ انْفِطَارِ
السَّمَاءِ وَانْتِثَارِ الْكَوَاكِبِ، فِي سِيَاقِ تَصْوِيرِ انْهِيَارِ النُّظَامِ الْكَوْنِيِّ،
فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾، وَأَوْثَرَ الْعَطْفُ بِالْوَاوِ دُونَ
غَيْرِهَا مُطْلَقَ الْجَمْعِ⁽²⁾، فَلَيْسَ فِي تَقْدِيمِ الْمَعْطُوفَاتِ أَوْ تَأْخِيرِهَا دَلِيلٌ
عَلَى أَنَّهُ بَدَأَ بِشَيْءٍ قَبْلَ شَيْءٍ؛ لِأَنَّ الْوَاوَ تَأْتِي لِلتَّرْتِيبِ وَلِغَيْرِهِ⁽³⁾.

فَذَكَرَ هُنَا أَوَّلًا مَا يَتَّصِلُ بِالْجَهَةِ الْعُلْيَا، وَهُوَ السَّمَاءُ وَكَوَاكِبُهَا،
ثُمَّ أَتْبَعَ ذَلِكَ بِذِكْرِ الْبِحَارِ فِي الْأَرْضِ؛ لِيَكُونَ الْمَشْهُدُ شَامِلًا لِمَا
فَوْقَ الْإِنْسَانِ وَمَا يُحِيطُ بِهِ فِي أَرْضِهِ، فَالْعَطْفُ هُنَا يُفِيدُ تَكَامُلَ
صُورِ الْخَرَابِ، بِذِكْرِ الْعُلُوِّ ثُمَّ الْأَرْضِيِّ؛ لِتَتَحَقَّقَ الْإِحَاطَةُ بِجَمِيعِ
الْجِهَاتِ، وَهُوَ مِمَّا يَقْوِي الرُّهْبَةَ، وَيُثَبِّتُ فِي الذَّهْنِ أَنَّ الْخَرَابَ يَعُمُّ
كُلَّ شَيْءٍ، فَلَا مَلْجَأَ وَلَا مَفْرَأَ.

تَصْوِيرُ الْمُسْتَقْبَلِ
فِي صُورَةِ الْمَاضِي
دَلِيلٌ عَلَى تَحَقُّقِ
وُقُوعِهِ

إِبْرَارُ التَّرَاوُجِ
بَيْنَ الْمَشَاهِدِ
الْكُونِيَّةِ لِلتَّهْوِيلِ
والتَّخْوِيفِ

(1) الرَّضِيِّ، شرح الرُّضِيِّ عَلَى الْكَافِيَةِ: 2/ 250.

(2) الرَّضِيِّ، شرح الرُّضِيِّ عَلَى الْكَافِيَةِ: 2/ 403.

(3) سِبْيُوهِ، الْكِتَابُ: 1/ 218، وَالسَّامِرَاوِيُّ، مَعَانِي النُّحُو: 3/ 188.

دلالة جمع ﴿الْبَحَارُ﴾:

من أهوال اليوم
الآخر تفجير
جميع البحار

آثَرُ نَظْمِ الْقُرْآنِ التَّعْبِيرَ بِجَمْعِ الْبَحَارِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا
الْبَحَارُ فُجِّرَتْ﴾ دُونَ إِفْرَادِهَا عَلَى الْجِنْسِ: لِلتَّفْخِيمِ وَالتَّهْوِيلِ؛ إِذْ
يَدُلُّ هَذَا الْجَمْعُ عَلَى أَنَّ كُلَّ بَحْرٍ مَعْرُوفٍ لِلنَّاسِ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ
وَمَغَارِبِهَا سَيَكُونُ مَحَلًّا لِهَذَا التَّفْجِيرِ الْمَهُولِ، فَلَا يَبْقَى بَحْرٌ عَلَى
هَيْئَتِهِ، بَلْ تَتَفَجَّرُ مِيَاهُهُ، وَتَزُولُ الْحُدُودُ بَيْنَهَا، فَتَصِيرُ الْأَرْضُ كَأَنَّهَا
مَاءٌ غَامِرٌ.

وَفِي الْجَمْعِ إِشْعَارٌ بِالِاسْتِغْرَاقِ؛ لِأَنَّهُ يُفِيدُ انْفِجَارَ جَمِيعِ الْبَحَارِ،
كَبِيرِهَا وَصَغِيرِهَا، وَيُظْهِرُ الْمَشْهَدَ فِي صُورَةٍ كَوْنِيَّةٍ عَامَّةٍ لَا يَسْلَمُ
مِنْهَا مَكَانٌ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي تَصْوِيرِ الرَّهْبَةِ وَانْهْيَارِ النُّظَامِ الْكَوْنِيِّ
يَوْمَئِذٍ، فَالْمَقْصُودُ مِنَ الْجَمْعِ هُوَ التَّنْبِيهُ عَلَى انْتِشَارِ مَشَاهِدِ الْخَرَابِ
فِي جَمِيعِ الْأَرْضِ، حَتَّى لَا يَتَوَهَّمُ مَتَوَهَّمٌ أَنَّ بَحْرًا دُونَ آخَرَ يَسْلَمُ مِنْ
هَذَا التَّفْجِيرِ الْعَظِيمِ.

دلالة تعريف ﴿الْبَحَارُ﴾:

استغراق جميع
مجري المياه
من المحيطات
والبحار

جَاءَ تَعْرِيفُ لَفْظِ الْبَحَارِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْبَحَارُ
فُجِّرَتْ﴾؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْاسْتِغْرَاقِ الْجِنْسِيِّ؛ فَيَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ مَا
يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ بَحْرٍ، مِنَ الْمَحِيطَاتِ وَالْبَحَارِ الْمَعْرُوفَةِ، وَالْبَحِيرَاتِ
الْعِظَامِ الَّتِي تُشَبِّهُ الْبَحَارَ فِي سَعَتِهَا، فَهَذَا الْاسْتِغْرَاقُ يُفِيدُ
الشُّمُولَ لِكُلِّ مَجْمَعٍ مَائِيٍّ، وَيُصَوِّرُ الْخَطْبَ فِي صُورَةِ الشُّمُولِ
الْكَوْنِيِّ لِلْأَرْضِ⁽¹⁾.

وَلِأَنَّ الْمَقْصُودَ لَيْسَ بَحْرًا وَاحِدًا أَوْ نَوْعًا بَعْضِيًّا، بَلِ الْجِنْسُ كُلُّهُ؛
إِذَا فُجِّرَتْ الْبَحَارُ كُلُّهَا؛ انْقَلَبَتِ الْأَرْضُ، وَسَقَطَ رُكْنٌ عَظِيمٌ مِنْ
أَرْكَانِ الْحَيَاةِ، وَهُوَ مِمَّا يَزِيدُ فِي التَّهْوِيلِ، وَيُعْطِي صُورَةَ كَوْنِيَّةٍ عَامَّةٍ

(1) السَّامِرَائِيُّ، معاني النحو: 1/ 107.

للاضطرابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وفي ذَلِكَ إِشْعَارٌ أَنَّ الْحَدَثَ يَطَالُ جَمِيعَ
أَقْطَارِ الْأَرْضِ، فَيَكُونُ التَّصْوِيرُ أبلغَ في الرَّهْبَةِ وَالْإِنْذَارِ.

بِدَاعَةُ اسْتِعْمَالِ مَادَّةِ التَّفْجِيرِ:

جاءَ التَّعْبِيرُ الْقُرْآنِيُّ بِمَادَّةِ التَّفْجِيرِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا
الْبَحَارُ فُجِّرَتْ﴾؛ لِلإِشَارَةِ إِلَى شِدَّةِ الاضطرابِ فِي مِيَاهِ الْبَحَارِ،
حَتَّى تَتَفَجَّرَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، وَتَزُولَ الْحَوَاجِزُ الَّتِي كَانَتْ مَانِعَةً
بَيْنَهَا، فَتَصِيرَ الْأَرْضُ كَأَنَّهَا مُغْرَقَةٌ فِي فَوْضَى مَائِيَّةٍ عَامَّةٍ، وَهَذَا
أبلغَ فِي تَهْوِيلِ الْمَشْهَدِ؛ إِذِ الْبَحَارُ أَعْظَمُ مَا يَرَاهُ الْإِنْسَانُ فِي الْأَرْضِ،
فَإِذَا انْقَلَبَتْ، وَتَفَجَّرَتْ؛ زَالَ كُلُّ أَمْنٍ وَثَبَاتٍ.

مَشْهَدُ التَّفْجِيرِ
الْكُونِي، وَخُرُوجِ
الْبَحَارِ عَنْ
نِظَامِهَا

وَأَوْثَرَتْ هَذِهِ الْمَادَّةُ دُونَ غَيْرِهَا - كَالْفَيْضَانِ أَوْ الْإِمْتِلَاءِ - لِأَنَّهَا
مِنْ أبلغِ الْمُفْرَدَاتِ فِي تَصْوِيرِ هَذَا الْمَشْهَدِ، فَالتَّفْجِيرُ فِي الْأَصْلِ هُوَ
شَقُّ الْأَرْضِ؛ لِتَسْيِيلِ الْمَاءِ فِي الْمَسَالِكِ، حَتَّى يَنْبُعَتْ كَثِيرًا غَامِرًا،
وَهَذَا مَا يُؤَكِّدُهُ وَاقِعُ اسْتِعْمَالِ الْمُفْرَدَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَأَكْثَرَ
مَا وَرَدَ هَذَا اللَّفْظُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي تَفْجِيرِ الْمَاءِ، قَالَ تَعَالَى:
﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: 12]، ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ [الكهف:
33]، ﴿فَتَفَجَّرَ الْأَنْهَارُ﴾ [الإسراء: 91]، ﴿تَفَجَّرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [33]
[الإسراء: 90]، ﴿فَأَنْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: 60] (1).

فَجْعَلَ حَالُ الْبَحَارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهَا عُيُونٌ فَجَّرَتْ، تَتَدَفَّعُ
مِيَاهُهَا، وَتَتَفَجَّرُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، فَيَزُولُ حَدُّهَا، وَيَطْفِئُ مَاؤُهَا
عَلَى الْبَرَارِيِّ، وَيَغْمُرُ الْمَعْمُورَ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ لَا يَبْقَى بَحْرٌ عَلَى مَا هُوَ
عَلَيْهِ، بَلْ يَصِيرُ الْبَحْرُ بَحْرًا آخَرًا فِي شِدَّةِ الاضطرابِ، وَفِي الْفَوْرَانِ،
فَالْتَّعْبِيرُ بِالتَّفْجِيرِ أبلغُ مِنَ (فَاضَتْ) أَوْ (امْتَلَأَتْ)؛ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى
تَدَفُّعٍ وَتَفَجُّرٍ، وَانْفِجَارٍ مَهُولٍ يُخْرِجُ الْبَحَارَ عَنْ سَجِيَّتِهَا.

(1) الْأَصْفَهَانِي، لِلْمُفْرَدَاتِ، ص: 625.

دلالة التعبير بصيغة المبالغة:

تصويرٌ خروج
ماءِ البحارِ عن
طبيعتها بشدةٍ
مذهلةٍ

آثر القرآن الكريم التعبير بصيغة التفعيل في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾؛ لما تحمله صيغة المبالغة من الدلالة على شدة الفعل، فأصل التفجير إطلاقه على الشيء المحبوس؛ ليتدفق بغزارة، وعلى ذلك فقوله تعالى: ﴿فُجِّرَتْ﴾ يفيد أن البحار قد شقت أرجاؤها، وتدفع ماؤها، فتفجير البحار هو انطلاق ماؤها من مستواها، وقيضانه على ما حولها من الأرضين، وبذلك التفجير يعم الماء على الأرض، فيهلك ما عليها، ويختل سطحها⁽¹⁾، فتفجير البحار يعبر عن تحولها إلى قوى طاغية، إما بتفجير مياهها واندفاعها على اليابسة، فتعم ما حولها، أو بتحول ما فيها من عناصر إلى أخرى مدمرة، ويحتمل أن يكون المعنى الجامع: إخراجها عن طبيعتها الراسخة؛ لتصبح عنصر فوضى وهدم، بعد أن كانت عنصر حياة.

دلالة البناء للمفعول:

تصويرٌ هول
القيامة
للسامعين

جاء فعل التفجير في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ مبنياً لما لم يسم فاعله، والبناء للمفعول هنا ليس للإبهام، بل للتعظيم والإشارة إلى أن الأمر فوق متناول المخلوقات، وعدل النظم القرآني عن إسناد فعل التفجير إلى البحار، كما سبق في انفطار السماء وانتثار الكواكب - فلم يقل: (وإذا البحار انفجرت) - لبيان الفرق في الصورة المشاهدة؛ فإنه - وإن كان جميعها بتقدير الملك القهار - ينسب إلى السماء والكواكب الانفطار والانتثار؛ لأنهما يشاهدان بمظاهريهما كأنهما يتفاعلان في ذاتهما بالانشقاق والتناثر؛ فلذلك أسند إليهما الفعل مطاوعة؛ أما البحار؛ فلا يلاحظ فيها الانفعال، بل يحس فيه تأثر القدرة الغالبة، فبني فعله لمفعوله، وفي هذا التنويع

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30 / 172.

في الأساليب إمعانٌ في تعديدِ صَوَرِ الهَوَلِ، وذلك أدقُّ في التَّصْوِيرِ، وأبلغُ في التَّهْوِيلِ.

توجيه التشابه اللفظي:

تشابهت هذه الآية: ﴿وَإِذَا الْبَحَارُ فُجِّرَتْ﴾، مع قول الله تعالى في سورة التَّكْوِيرِ: ﴿وَإِذَا الْبَحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: 6]، وكلُّ لفظٍ منهما مُلائمٌ في مَوْضِعِهِ، فسورة الانفطارِ اختَصَّتْ بالانفجارِ لِمُنَاسَبَتِهِ مَطْلَعُ السُّورَةِ؛ لأنَّ تَفْجِيرَ الْبَحَارِ يُفِيدُ فَتْحَ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ، بانفجارِ الْعَذْبِ إِلَى الْمَالِحِ، والمَالِحِ إِلَى الْعَذْبِ، وهذا مُنَاسِبٌ لَانْفِطَارِ السَّمَاءِ، وانتثارِ الْكَوَاكِبِ.

مُنَاسِبَةُ التَّفْجِيرِ
لِلانْفِطَارِ
وَالانْتِثَارِ،
وَمُنَاسِبَةُ
التَّسْجِيرِ
لِلتَّكْوِيرِ
وَالتَّزْوِيجِ

وأما مَوْضِعُ سُورَةِ التَّكْوِيرِ؛ فجاء مُنَاسِبًا لِسِيَاقِهِ، مِنْ حَشْرِ الْوُحُوشِ، وَتَزْوِيجِ النُّفُوسِ، فَتَسْجِيرِ الْبَحَارِ مُنَاسِبٌ لِهَذَا الْمَشْهَدِ؛ لأنَّ التَّسْجِيرَ مَعْنَاهُ الْمَلَأَ، مِنْ قَوْلِكَ: (سَجَرْتُ النَّوْرَ)؛ إِذَا مَلَأْتَهُ بِالْحَطَبِ، والمرادُ اجتماعَ مياهاها⁽¹⁾.

سِرُّ عَطْفِ بَعَثَةِ الْقُبُورِ:

رُتِبَ صَدْرُ سُورَةِ الانْفِطَارِ تَرْتِيبًا بَدِيعًا لِأَحْدَاثِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ إِذْ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكُوكَبُ انْتَثَرَتْ ۝ وَإِذَا الْبَحَارُ فُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾، فجاء خِتَامُ مَطْلَعِ السُّورَةِ بِبَعْثَةِ الْقُبُورِ فِي نَسَقٍ بَدِيعٍ، تَدَرَّجَ بِالسَّامِعِ مِنَ الْعَوَالِمِ الْعُلْيَا إِلَى الْعَوَالِمِ السُّفْلَى، وَمِنْ ظَوَاهِرِ الْكَوْنِ الْعَامَّةِ إِلَى مَصِيرِ الْإِنْسَانِ نَفْسِهِ، وَهَذَا الْفَنُّ يَسْمَى بِالتَّدَلِّيِّ، وَهُوَ أَنْ يُذَكَّرَ الْأَعْلَى ثُمَّ الْأَدْنَى لِنُكْتَةِ⁽²⁾، فَابْتَدَأَ بِالسَّمَاءِ، ثُمَّ الْكَوَاكِبِ، وَهِيَ جُزْءٌ مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ الْبَحَارِ وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ كَوَكَبِ الْأَرْضِ تَحْتَ السَّمَاءِ، ثُمَّ الْقُبُورِ الَّتِي هِيَ الْجُزْءُ التَّحْتِيُّ مِنْ كَوَكَبِ الْأَرْضِ.

ذِكْرُ مَا يَتَعَلَّقُ
بِمَصِيرِ الْفَرْدِ
بَعْدَ انْفِطَارِ
عَقْدِ الْكَوْنِ فِيهِ
تَهْوِيلٌ وَتَخْوِيفٌ

(1) الغرناطي، وملاك التأويل، ص: 503.

(2) عكاوي، المعجم المُفَصَّلُ فِي عُلُومِ الْبَلَاغَةِ: 2/ 299.

فَبَدَّيْتُهُ بِانْفِطَارِ السَّمَاءِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الْإِنْقِلَابَ يَبْدَأُ بِمَظَاهِيرِ
الْكُونِ الْأَجَلِّ، ثُمَّ يَتَّبِعُهُ انْتِثَارُ الْكَوَكِبِ لِتَفْكَكِ النِّظَامِ الْفَلَكيِّ، ثُمَّ
تَفْجِيرُ الْبَحَارِ وَهُوَ مَظْهَرُ أَرْضِيَّ عَامٍّ يَعْمُ الْبَشَرُ كَافَّةً، ثُمَّ خُتِمَ
بِبَعَثَةِ الْقُبُورِ، وَهُوَ الْحَدِثُ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِمَصِيرِ كُلِّ فَرْدٍ، وَبِهَذَا
التَّدْرِجِ يَكُونُ التَّخْوِيفُ أَشَدَّ؛ إِذْ يَسْوَقُ السَّامِعَ مِنْ عَجَائِبِ الْكُونِ
الْمُهَوَّلَةِ إِلَى الْمَصِيرِ الشَّخْصِيِّ الَّذِي لَا مَفَرَّ لَهُ مِنْهُ، وَهُوَ مِمَّا
يُعَدُّ مِنْ بَلَغَةِ التَّرْتِيبِ فِي الْقُرْآنِ؛ إِذْ يَجْمَعُ بَيْنَ التَّهْوِيلِ الْكُونِيِّ
وَالْإِنْذَارِ الشَّخْصِيِّ.

دَلَالَةُ لَفْظِ «الْقُبُورِ»:

فِي اخْتِيَارِ لَفْظِ «الْقُبُورِ» فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ
بُعِثِرَتْ﴾ دَقَّةٌ بَيَانِيَّةٌ تَكْشِفُ عَنْ نَفَادِ النَّظَرِ فِي مَقَاصِدِ التَّعْبِيرِ
الْقُرْآنِيِّ، وَرِقَّةٌ لِمَسِّ أَعْمَاقٍ مَا يَسْتَقِرُّ فِي نَفُوسِ النَّاسِ، فَالْقَبْرُ لَفْظٌ
جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةِ الْعَامَّةِ، مَأْلُوفٌ فِي حَيَاةِ النَّاسِ، مَشْهُودٌ فِي مَوَاقِفِ
الْوَدَاعِ، مَعْرُوفُ الْمَعَالِمِ وَالْهَيْئَةِ، فَالتَّعْبِيرُ بِهِ يُقَدِّمُ صُورَةً كُونِيَّةً
ذَاتَ رَهْبَةٍ، تَنْزِلُ لَهَا الْأَرْكَانُ؛ فَالسَّمَاءُ تَنْفَطِرُ، وَالْكَوَكِبُ تَنْثَرُ،
وَالْبَحَارُ تَنْفَجِرُ، ثُمَّ تَقْلِبُ عُيُونُ الْخَلْقِ إِلَى الْأَرْضِ، الَّتِي اسْتَقَرَّتْ
فِيهَا الْأَجْسَادُ الْمَقْبُورَةُ، فَإِذَا هِيَ تُبْعَثُ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنَ النَّوَاحِي،
مَعَ اخْتِلَاطِ الْأَجْسَادِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ.

وَفِي ذِكْرِ الْقُبُورِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ التَّبَدُّلَ الَّذِي يَجْتَاحُ الْكَوْنَ لَا يَقِفُ عِنْدَ
مَظَاهِيرِ السَّمَاءِ وَعَوَالِمِ الْفَلَكَ، بَلْ يَبْلُغُ حَتَّى أَخْفَى مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ
أَسْرَارٍ وَأَجْسَادٍ، فَيُبْعَثُ الْقُبُورُ، كَمَا يُكْشَفُ عَنْ كُلِّ دَفِينٍ وَمَكْنُونٍ،
وَلَمْ يَأْتِ الْفِعْلُ «بُعِثِرَتْ» إِلَّا لِيُزِيدَ مِنْ فِطْرَةِ الْمَشْهَدِ، فَهُوَ يُفِيدُ
الْقَلْبَ وَالْهَدْمَ وَالخَلْطَ، وَلَيْسَ مُجَرَّدَ نَبْشٍ أَوْ كَشْفٍ، بَلْ كَأَنَّهُ أَنْهَادٌ
لِكُلِّ نِظَامٍ وَهَيْئَةٍ، فَيَسْتَوِي فِي ذَلِكَ مَنْ طَالَ نَسِيْهُ وَمَنْ قَرُبَ عَهْدُهُ،
وَيَقِفُ كُلُّ أَحَدٍ أَمَامَ حَقِيقَةِ نَفْسِهِ: ﴿عَلِمْتُ نَفْسٌ مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ﴾.

أثر اللفظ المألوف
في تصوير الهول
الأعظم

دَلَالَةُ التَّعْرِيفِ:

في تَعْرِيفِ لَفْظِ الْقُبُورِ دُونَ تَنْكِيرِهِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا
الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ دَلَالَةٌ بَيَانِيَّةٌ رَفِيعَةٌ، تُسَجِّحُ خِيوطَهَا فِي سِيَاقٍ يَنْقَلِبُ
فِيهِ كَوْنُ الْمَالُوفِ إِلَى كَوْنٍ آخَرَ مُفْزِعٍ، وَتَبَرُّزُ فِيهِ مَظَاهِرُ الْقُوَّةِ الْإِلَهِيَّةِ
الْمُطْلَقَةِ، وَتَتَزَاخَمُ فِيهِ مَشَاهِدُ الْهَوْلِ وَالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ، فَتَعْرِيفُ
الْقُبُورِ يُفِيدُ الْاسْتِغْرَاقَ⁽¹⁾، كَأَنَّهُ قِيلَ: (جَمِيعُ الْقُبُورِ بُعْثِرَتْ)؛ لِيَدُلَّ
عَلَى أَنَّ الْبَعْثَرَةَ لَا تُصِيبُ قَبْرًا دُونَ آخَرَ، وَلَا أَهْلَ زَمَنِ دُونَ آخَرِينَ،
بَلْ هِيَ شَامِلَةٌ لِكُلِّ مَنْ فِي الْقُبُورِ عَلَى اخْتِلَافِ أَحْوَالِهِمْ وَأَزْمَانِهِمْ.

الإشارة إلى
القُبُورِ لِلْمَعْهُودَةِ
وَأَقْبَعًا وَفِكْرًا

وَهَذَا التَّعْرِيفُ يُضِيفُ لِسِيَاقِ الْآيَاتِ مَعْنَى آخَرَ: فَالْقُبُورُ الْمَعْرُوفَةُ
لَدَى النَّاسِ هِيَ مَا يَعْرِفُونَهُ، وَيُزَوِّدُونَهُ، وَيُشَاهِدُونَهُ، وَيَحْفَرُونَهُ
بَأَيْدِيهِمْ، فَالتَّعْرِيفُ يُشِيرُ إِلَى الْمَعْهُودِ الْمُتَعَلِّقِ بِالْوَقْعِ وَالذَّهْنِ؛
لِيَقْتَرِبَ الْمَعْنَى مِنَ النَّفْسِ أَكْثَرَ، وَلِيُصْبِحَ الْهَوْلُ أَكْثَرَ تَجَسُّدًا وَاحَاطَةً.

بَدَاعَةُ اسْتِعْمَالِ فِعْلِ الْبَعْثَرَةِ:

جَاءَ التَّعْبِيرُ الْقُرْآنِيُّ عَنْ نَبَشِ الْقُبُورِ وَإِخْرَاجِ مَنْ فِيهَا بِفِعْلِ
الْبَعْثَرَةِ، فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ انْقَلَبَ
بَاطِنُهَا ظَاهِرَهَا، فَالْبَعْثَرَةُ: الْانْقِلَابُ، يُقَالُ: بَعَثَرُ الْمَتَاعُ؛ إِذَا قَلَبَ
بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَأَصْلُ الْمَادَّةِ مُرَكَّبٌ مِنَ (الْبَعْثِ) مَعَ رَاءٍ ضُمَّتْ
إِلَيْهِ، قِيلَ: هِيَ رَاءُ الْإِثَارَةِ؛ فَيَكُونُ الْفِعْلُ (بَعَثَرَ) مَنَحُوًّا مِنَ (بَعَثَ)
(وَأَثَارَ)، مِثْلُ: (بَسَمَلَ)، وَ(حَوَّلَ)، فَفِي (بَعَثَرَ) مَعْنَى فِعْلَيْنِ:
(بَعَثَ) وَ(أَثَارَ)، أَي: أَخْرَجَ، وَقَلَبَ؛ فَكَأَنَّهُ قَلَبَ لِأَجْلِ إِخْرَاجِ مَا فِي
الْمَقْلُوبِ⁽²⁾، فَالْبَعْثَرَةُ أُبْلَغُ فِي إِثَارَةِ مَشْهَدِ الْفَرْعِ التَّامِّ مِنْ أَنْ يُقَالَ:
(نُبِشَتْ) أَوْ (فُتِحَتْ)، فَإِنَّ ﴿بُعْثِرَتْ﴾ تَدُلُّ عَلَى قَلَقٍ وَاضْطِرَابٍ
شَدِيدٍ، يُخْرِجُ مَا فِي الْقُبُورِ إِخْرَاجًا عَنِيفًا غَيْرَ مَنْظَمٍ، لَا كَمَا يُنْقَلُ

تصويرُ الهول،
وتجسيدُ الفرع

(1) السامرائي، معاني النحو: 1/ 100.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 172.

المَيِّتُ يَوْمَ الدَّفْنِ فِي هُدُوءٍ وَسُكُونٍ، فَالْأَرْضُ كَأَنَّهَا انْقَلَبَتْ، وَأَخْرَجَتْ مَا فِيهَا دَفْعَةً وَاحِدَةً، مُضْطَرِبَةً هَائِجَةً؛ إِذَا نَا بَدَايَةِ الْحِسَابِ. وَخُصِّصَتْ بَعْتَرَةُ الْقُبُورِ "بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ حَالَاتِ الْأَرْضِ: لِمَا فِيهَا مِنَ الْهَوْلِ بِاسْتِحْضَارِ حَالَةِ الْأَرْضِ، وَقَدْ أَلْقَتْ عَلَى ظَاهِرِهَا مَا كَانَ فِي بَاطِنِ الْمَقَابِرِ مِنْ جُبْتٍ كَامِلَةٍ وَرُفَاتٍ"⁽¹⁾.

سِرُّ الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ:

كَفَى بِتَصْوِيرِ
بَعْتَرَةِ الْقُبُورِ
تَخْوِيفًا

فِي بِنَاءِ فِعْلِ الْبَعْتَرَةِ لِلْمَفْعُولِ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ نُكْتَةُ بَيَانِيَّةٍ رَفِيعَةٍ، تَتَجَلَّى فِي سِيَاقٍ يَنْتَاسِبُ فِيهِ كُلُّ تَعْبِيرٍ مَعَ هَيِّبَةِ الْمَقَامِ، فَهُوَ مَقَامٌ تَنْهَدِمُ فِيهِ الْقُوَى، وَتَتَفَكَّكُ فِيهِ نُظُمُ الْكَوْنِ، وَيَخْرُجُ فِيهِ كُلُّ مَكْنُونٍ إِلَى الْعَلَنِ، فَجَاءَ الْفِعْلُ مَبْنِيًّا لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ؛ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ الْحَدَثَ عَظِيمٌ فِي نَفْسِهِ، مُهَيِّبٌ فِي آثَارِهِ، لَا يَشْغُلُ فِيهِ السِّيَاقُ بِذِكْرِ فَاعِلٍ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ تَصْوِيرُ وَقْعَةِ الْبَعْتَرَةِ نَفْسِهَا وَمَا تُحْدِثُهُ مِنْ هَوْلٍ، لَا مَنْ قَامَ بِهَا، فَالْقُبُورُ هِيَ الْمُبْعَثَرَةُ، وَهَذَا أَدْخَلَ فِي إِثَارَةِ الْفَرْعِ، وَأَبْلَغَ فِي إِرْهَافِ الشُّعُورِ، مِنْ أَنْ يُقَالَ: بَعَثَرَ اللَّهُ الْقُبُورَ، أَوْ بَعَثَرَتْ الْأَرْضُ الْقُبُورَ.

دَلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْمَاضِي:

تَحَقُّقُ الْوُقُوعِ
الَّذِي يَحْمِلُ
شِدَّةَ التَّخْوِيفِ
وَالْتَّهْوِيلِ

فِي الْإِثْبَانِ بِفِعْلِ الْبَعْتَرَةِ عَلَى صِيغَةِ الْمَاضِي، فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ نُكْتَةُ بَلَاغِيَّةٍ دَقِيقَةٍ، تَكْشِفُ عَنْ أَفْقٍ عَالٍ فِي التَّصْوِيرِ، وَحِكْمَةٍ رَبَّانِيَّةٍ فِي الْإِنْذَارِ وَالْإِيقَاطِ؛ إِذِ الْمَعْرُوفُ أَنَّ صِيغَةَ الْمَاضِي تَدُلُّ عَلَى التَّحَقُّقِ وَالْوُقُوعِ، فَإِذَا جَاءَتْ فِي سِيَاقٍ يَتَعَلَّقُ بِالْمُسْتَقْبَلِ؛ كَانَ ذَلِكَ إِظْهَارًا لِكَمَالِ التَّحَقُّقِ، فَلَا مَجَالَ فِيهِ لِلشَّكِّ، وَلَا لِلتَّرَدُّدِ، وَلَا لِلتَّأْخِيرِ، فَكَأَنَّهُ وَقَعَ الْأَمْرُ، وَانْقَضَى.

فَكَأَنَّ السُّورَةَ تَصَوَّرَ الْمُسْتَقْبَلَ الْمُفْرَعَ بِصِيغَةِ الْمَاضِي؛ لِتَجْعَلَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 172/30.

السَّامِعَ فِي مَوْقِفِ الْمُشَاهِدِ الْآنَ، وَلَيْسَ فِي مَوْقِفِ مَنْ يَنْتَظِرُ
حُدُوثًا غَامِضًا فِي زَمَنِ قَادِمٍ؛ فَالْصِّغَةُ الْمَاضِيَّةُ تَقْرُبُ الْغَائِبَ،
وَتُجَسَّدُ الْهَوَلُ، وَتَدْفَعُ النَّفْسَ إِلَى الْخَوْفِ الْحَاضِرِ، لَا الْأَمْنِ مِنْ
غَيْبٍ بَعِيدٍ.

بِلَاغَةُ الْإِطْنَابِ بِتَعَاظِفِ جُمَلِ الشَّرْطِ:

تَعَاظِبُ الْجُمَلِ الْمُصَدَّرَةِ بِ(إِذَا)، فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا
السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ اُنْتَثَرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ
۝ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾، مَبْنِيٌّ عَلَى طَرِيقِ الْإِطْنَابِ، الَّذِي يُقْصَدُ
مِنْهُ تَكْثِيفُ التَّصْوِيرِ، وَتَشْدِيدُ وَقْعِ الْمُخْبَرِ بِهِ فِي نَفُوسِ السَّامِعِينَ،
وَيُلَاحَظُ أَنَّ الْجُمْلَةَ الْمُتَعَاظِفَةَ الْمُضَافَ إِلَيْهَا هِيَ هُنَا أَقْلُ مِنَ اللَّاتِي
فِي سُورَةِ التَّكْوِيرِ؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ لَمْ يَقْتَضِ تَطْوِيلَ الْإِطْنَابِ، كَمَا اقْتَضَاهُ
الْمَقَامُ فِي سُورَةِ التَّكْوِيرِ، فَهُوَ وَإِنْ كَانَ فِي كِلْتَاهُمَا مُقْتَضٍ لِلْإِطْنَابِ،
إِلَّا أَنَّهُ مُتَفَاوِتٌ؛ لِأَنَّ سُورَةَ التَّكْوِيرِ مِنْ أَوَّلِ السُّورِ نُزُولًا، وَسُورَةُ
الْإِنْفِطَارِ نَزَلَتْ بَعْدَهَا بِأَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ سُورَةً، تَكَرَّرَ فِي بَعْضِهَا اثْبَاتُ
الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ وَالْإِنْذَارِ، وَتَقَرَّرَ عِنْدَ الْمُخَاطَبِينَ، فَأَغْنَى عَنْ تَطْوِيلِ
الْإِطْنَابِ وَالتَّهْوِيلِ⁽¹⁾.

وَهَذَا الْإِطْنَابُ بِتَعَاظِبِ الْجُمَلِ الْمُصَدَّرَةِ بِ(إِذَا) فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى
تَرْسِيخِ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي نَفُوسِ السَّامِعِينَ؛ تَمْهِيدًا لِقَوْلِ اللَّهِ
تَعَالَى: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، وَفِيهِ تَنْبِيهُ وَتَذَكِيرٌ، وَنَهْيَةٌ
لِسَوْقِ الْحُجَّةِ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ.

دَلَالَةُ الْأَفْعَالِ الصَّوْتِيَّةِ:

خَتَمَ الْآيَاتِ الْأَرْبَعِ الْأَوَّلِ بِالْأَفْعَالِ ﴿انْفَطَرَتْ﴾ و﴿اُنْتَثَرَتْ﴾
و﴿فُجِّرَتْ﴾ و﴿بُعْثِرَتْ﴾ مَخْتَوْمَةً كُلُّهَا بِرَاءٍ مَفْتُوحَةٍ وَتَاءٍ سَاكِنَةٍ:
يُبَشِّرُ نِعْمَةً بِلَاغِيَّةً مُوَحَّدَةً، تُؤَكِّدُ بِشِدَّةٍ وَقَعَهَا وَتَكَرَّرَ أَنْ مَا بَيْنَ

الترتيب
والتكثيف في
تصوير مشاهد
يوم القيامة

شِدَّةُ وَقْعِ
الصَّوْتِ عَلَى
نَفْسِ السَّامِعِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30 / 170.

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ قَدْ تَغَيَّرَ، وَأَنَّ الْكَوْنَ بَكْلٌ أَرْكَانِهِ قَدْ دَخَلَ فِي طَوْرِ
آخَرَ، فَانْهَدَمَ النَّظَامُ الْمَعْهُودُ، وَبَدَأَ نِظَامُ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ.

عِلَّةُ فَضْلِ جُمْلَةِ الْجَوَابِ:

فُصِّلَتِ جُمْلَةُ الْجَوَابِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿عَلِمْتُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمْتُ
وَأَخَّرْتُ﴾ عَنْ جُمَلِ الشَّرْطِ السَّابِقَةِ عَلَيْهَا: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ①
وَإِذَا الْكُكُوبُ أُنْفَثَتْ ② وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ③ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾،
وَهُوَ جَارٍ عَلَى أَسْلُوبِ بَلَاغِيٍّ مَقْصُودٍ مِنْهُ تَفْسِيحُ الْمَجَالِ لِتَصْوِيرِ تِلْكَ
الْمَشَاهِدِ الْكَوْنِيَّةِ عَلَى وَجْهِ يُثِيرُ فِي النُّفُوسِ رَهْبَةً الْهَوْلِ وَتَوْقَعُ الْعَاقِبَةِ،
فَتَعَاقِبُ الْجُمْلَ الشَّرْطِيَّةَ بِ(إِذَا) مَعَ تَعْلِيلِ الْجَوَابِ حَتَّى الْخِتَامِ،
يُؤَدِّي مَعْنَى التَّشْوِيقِ، وَيُهَيِّئُ السَّمَاعَ لَتَلْقَى الْجَوَابَ بِوَقْعٍ أَقْوَى؛ فَكَأَنَّ
الْمُتَلَقِّيَ يَبْقَى مُتَرَقِّبًا لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى تِلْكَ الْحَوَادِثِ الْعِظَامِ، حَتَّى إِذَا
وَرَدَ الْجَوَابُ: ﴿عَلِمْتُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ﴾؛ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ وَقَعًا
شَدِيدًا عَنِيفًا، يُشَبِّهُ شِدَّةَ انْفِرَاطِ الْمَشَاهِدِ الْكَوْنِيَّةِ الْمُتَقَلِّبَةِ. فَجَاءَ
الْفَصْلُ بَيْنَ الْجَوَابِ وَالشَّرْطِ؛ لِتَكْثِيفِ التَّصْوِيرِ وَتَشْدِيدِ الْوَقْعِ، وَهُوَ
مَعْهُودٌ فِي الْفَصَاحَةِ الْقُرْآنِيَّةِ، خَاصَّةً فِي سِيَاقِ التَّرْهِيْبِ وَالتَّشْبِيهِ
عَلَى عَظِيمِ الْمُتَقَلِّبِ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْعِلْمِ:

آثَرُ الْقِرَاءَنِ الْكَرِيمِ التَّعْبِيرَ بِالْعِلْمِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿عَلِمْتُ
نَفْسٌ مَّا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ﴾ - دُونَ الرُّؤْيَةِ مَثَلًا أَوْ الشَّهَادَةِ - لِأَنَّ
الْعِلْمَ أَدْقُ إِدْرَاكًا، وَأَشْمَلُ وُصُولًا، وَأَعْظَمُ نَفُوذًا إِلَى الْبَاطِنِ؛ وَالْعِلْمُ
يَحَقِّقُ بِإِدْرَاكِكَ مَا لَمْ يَكُنْ مَعْلُومًا مِنْ قَبْلُ، وَبِتَذَكُّرٍ مَا نَسِيَ لِطَوْلِ
الْمَدَّةِ عَلَيْهِ، وَهَذَا وَعِيدٌ بِالْحِسَابِ عَلَى جَمِيعِ أَعْمَالِ الْمُشْرِكِينَ، وَهُمْ
الْمَقْصُودُ بِالسُّورَةِ، وَوَعْدٌ لِلْمُتَّقِينَ، وَمُخْتَلَطٌ لِمَنْ عَمِلُوا عَمَلًا صَالِحًا
وَأَخَّرَ سَيِّئًا⁽¹⁾، وَفِي ذِكْرِ تَعْرِیْضٍ بِمَنْ كَانَ غَافِلًا فِي الدُّنْيَا عَنْ كُنْهِ

بِلَاغَةُ الْفَضْلِ
بَيْنَ الشَّرْطِ
وَجَوَابِهِ فِي
الْإِيقَاعِ وَاللِّقَامِ

الْعِلْمُ فِي مَشْهَدِ
الْحِسَابِ دَلِيلٌ
عَلَى إِقَامَةِ
الْحُجَّةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 173 / 30.

عَمَلِهِ، فَإثْبَاتُ "الْعِلْمِ لِلنَّاسِ بِمَا قَدَّمُوا، وَأَخْرَوْا عِنْدَ حُصُولِ تِلْكَ الشُّرُوطِ: لِعَدَمِ الِاعْتِدَادِ بِعِلْمِهِمْ بِذَلِكَ الَّذِي كَانَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَتُزَلُّ مَنْزِلَةً عَدَمُ الْعِلْمِ"⁽¹⁾.

فَلَوْ قِيلَ: (رَأَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)؛ لاقْتَرَبَ الْمَعْنَى مِنَ الإدْرَاكِ الْبَصَرِيِّ الظَّاهِرِيِّ، أَيْ: كَأَنَّهَا أَبْصَرَتْ الْأَعْمَالَ، وَشَاهَدَتْ الْأَحْوَالَ، وَهَذَا مَعْنَى صَحِيحٌ فِي نَفْسِهِ، لَكِنَّهُ لَا يَسْتَوْفِي شُمُولَ الْحِسَابِ النَّفْسِيِّ، وَوَقَعَ الصَّدَمَةُ الْعِلْمِيَّةُ فِي دَوَاخِلِ الْإِنْسَانِ، أَمَّا التَّعْبِيرُ بِ﴿عَلِمَتْ﴾؛ فَيُفِيدُ أَنَّهَا أَدْرَكَتْ إدْرَاكًا تَامًا بِمَا حَاجَةً إِلَى رُؤْيَا وَلَا شَاهِدٍ، بَلْ صَارَ مَا عَمَلَتْهُ مُنْكَشِفًا لَهَا فِي نَفْسِهَا، كَأَنَّهَا قَامَتْ تَجْرِي حِسَابَهَا مِنْ دَاخِلِهَا، لَا يَحْجُبُهُ حِجَابٌ، وَلَا يُخْفِيهِ خَفَاءٌ؛ وَذَلِكَ أَبْلَغُ فِي التَّوْبِيخِ وَالْإِلْزَامِ.

وَمِمَّا يُذَكِّرُ فِي سِرِّ التَّعْبِيرِ بِالْعِلْمِ أَنَّهُ يَشْمَلُ مَا هُوَ ظَاهِرٌ، وَمَا هُوَ مَكْنُونٌ؛ فَمَا قَدَّمَتْ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَمَا أَخَّرَتْ مِنْ أَثَارٍ، وَتَرَكَ، وَتَقْصِيرٍ، كُلُّ ذَلِكَ يَقْتَضِي فِي مِيزَانِ الْعِلْمِ، لَا مِيزَانَ الْعَيْنِ.

دَلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْمَاضِي:

التَّعْبِيرُ عَنْ وَقُوعِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، بِصِيغَةِ الْمَاضِي مَسْلُوكٌ بِلَاغِيٌّ دَقِيقٌ يُرَادُ بِهِ إِفَادَةُ تَحَقُّقِ الْوُقُوعِ، فَإِنَّ صِيغَةَ الْمَاضِي فِي مِثْلِ هَذَا السِّيَاقِ الَّتِي اسْتَفْتَحَ بِأَدَاةِ الشَّرْطِ (إِذَا) تُسَاقُ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعْرَاضِ لِشَاهِدِ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجْهِ التَّحْقِيقِ وَالتَّقْرِيبِ، كَأَنَّهَا وَقَعَتْ، وَشَوَّهَدَتْ، فَ﴿عَلِمَتْ﴾ تُفِيدُ أَنَّهَا أَدْرَكَتْ مَا فَعَلَتْهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَمَا تَرَكَتْهُ، أَوْ سَبَّيْتَهُ، عَلَى وَجْهِ لَا مَجَالَ فِيهِ لِلنَّسْيَانِ أَوْ الْجَهْلِ، كَأَنَّ ذَلِكَ الْعِلْمَ قَدْ ثَبَتَ فِي قَلْبِهَا، وَوَعْتُهُ بِوُضُوحٍ، فَلَا تَعْذِيرَ وَلَا إِنْكَارَ.

التَّحْقِيقُ وَالتَّقْرِيبُ
فِي أُسْلُوبِ
الْمَاضِي الْقَرَّاتِي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 173 / 30.

فالتعبير جارٍ على أسلوبِ تصوّرِ المُستقبلِ في صورةِ الماضي؛ إذا كانَ قطعِيّ الوقوعِ، وذلكَ أبلغُ في إثارةِ الرّهبةِ واستنفارِ الوعي، وجاءَ ختمُ المطّلعِ الأوّلِ لهذهِ السّورةِ بالفعلِ **﴿عَلِمْتَ﴾** على نفسِ الوزنِ الزمانيّ المذكورِ في الأفعالِ السّابقة؛ ليكونَ كلُّ ما في السياقِ مُنسَجَمًا في التّوقيتِ والإيقاعِ اللَّفْظيِّ، ويدلُّ على أنّ تلكَ الأحداثِ وما يتبعُها منَ العِلْمِ هي جميعًا في حُكْمِ الحوادثِ المتحقّقة قطعًا.

بلاغةُ التّعبيرِ بالنّفسِ:

إفادَةُ العُمومِ
والشُّمولِ في
الحُكْمِ، مَعَ
التّوجيهِ والإفرادِ
في التّوبيخِ

التّعبيرُ بالنّفسِ فاعلاً في قولِ الله تعالى: **﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ﴾**، فيه إشارةٌ بيانيّةٌ دقيقةٌ، تقتضي إفادَةَ التّعميمِ في الحُكْمِ على كلّ ذاتٍ عاقلةٍ، فجاءَ لفظُ **﴿نَفْسٌ﴾** مُنكراً؛ لِيَسْتَعْرِقَ كلّ نفسٍ على أنفرادِها، بلا تَخْصيصٍ وبلا استثناءٍ، فلو قيل: (عَلِمَ الإنسانُ ما قَدَّمَ، وأخر)؛ لتوهّم أن المرادَ جنسُ الإنسانِ على سبيلِ المُجَمَلِ، أو كانَ الخطابُ موجّهاً إليه في جملته، أمّا ذكرُ **﴿نَفْسٌ﴾**؛ فهو تَفْريْدٌ لكلِّ نفسٍ على حدةٍ، وبذلك تكون المواجهةُ أشدَّ وأعظمَ؛ إذ لا ملجأَ لِلنّفسِ في الجماعةِ، ولا سترَ لها بالاندساسِ تحتَ جنسٍ أو تحتَ معنَى كليٍّ.

ومنَ بلاغةِ هذا التّعبيرِ أن لَفْظَ النّفسِ يوجّهُ المعنى إلى الذاتِ الباطنيةِ، أي: إلى حقيقةِ الإنسانِ في جَوْهرِها، وما تحمّله منَ نياتٍ وأسرارٍ، لا إلى جسمِهِ أو مظاهرِهِ الخارجيّةِ، وبذلك يكونُ التّوبيخُ أبلغَ، والمواجهةُ أشدَّ؛ إذ النّفسُ تَرى نفسَها كأنّها المرصودةُ الوحيدةُ، فاستعملت **﴿نَفْسٌ﴾**؛ لتدلَّ على التّفريدِ والاستِغراقِ معاً.

عَرَضُ التّنكيرِ:

إفادَةُ التّعميمِ
والتهويلِ

تَنكِيرُ لَفْظِ **﴿نَفْسٌ﴾** في قولِ الله تعالى: **﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾**، جاءَ على وجهِ بلاغيٍّ يفتّضيه السياقُ؛ لأنّه يبيدُ التّعميمَ والتهويلَ، ف**﴿نَفْسٌ﴾** مرادٌ به العُمومُ على نحوِ ما وردَ في قولِهِ تعالى:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ۝﴾ [التكوير: 14]، فكلُّ الأنفُسِ ستَعْلَمُ يَوْمَ القيامةِ ذلكَ، فالتَّكْيِيرُ هُنَا لِلتَّكْثِيرِ وَالتَّهْوِيلِ، لَيْسَ لِلتَّقْلِيلِ، وَهُوَ مِنْ أَسَالِبِ الْفَصَاحَةِ فِي الْإِنْذَارِ وَالتَّوْبِيخِ، فَقَدْ جَاءَ التَّكْيِيرُ فِي مَقَامِ مَطْلَبِهِ التَّعْمِيمِ، فَلَا تُسْتَنْتَى نَفْسٌ، وَلَا تُحْصَى نَفْسٌ، فكلُّ مَنْ يَقَعُ عَلَيْهِ نِدَاءُ ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ﴾: هُوَ مِمَّنْ تَعْلَمُ نَفْسُهُ مَا قَدَّمَتْ، وَأَخَّرَتْ عِلْمًا لَا يَخْتَلِفُ فِيهِ، وَلَا يَغْيِبُ عَنْهُ.

دَلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْمَوْصُولِ ﴿مَا﴾:

اختيارُ المَوْصُولِ ﴿مَا﴾ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ﴾ يُفِيدُ الْعُمُومَ، وَمَعْنَاهُ: (عَلِمَتْ نَفْسٌ جَمِيعَ الَّذِي قَدَّمْتُهُ مِنْ أَعْمَالٍ، وَجَمِيعَ الَّذِي أَخَّرْتُهُ مِنْ أَثَارٍ وَتَبِعَاتٍ)، فَهِيَ تَقَعُ عَلَى ذَوَاتٍ مَا لَا يَعْقِلُ، وَعَلَى صِفَاتٍ مَنْ يَعْقِلُ.

دَلَالَةُ الاستِغْرَاقِ
وَشُمُولِ
الحِسَابِ

وَفِي التَّعْبِيرِ بِهَا رَوْعَةٌ بِلَاغِيَّةٍ؛ لِأَنَّهَا تَحْمِلُ مَعْنَى الْإِيجَازِ وَسَعَةِ الْمَعْنَى؛ إِذْ أَفَادَ لَفْظٌ وَاحِدٌ مَعَ الْفِعْلَيْنِ جَمِيعَ مَا يُحْتَمَلُ مِنْ مَعَانٍ مُتَوَعَّعَةٍ، ثُمَّ إِنَّ بِنَاءَ ﴿مَا﴾ يُوَافِقُ اسْتِعْمَالَهَا الْمُتَّسِعَ، فَإِنَّ مَدَّةَ الْأَلْفِ وَالِاتِّسَاعِ فِي هَوَاءِ الْفَمِ مُشَاكَلَةٌ لِاتِّسَاعِ مَعْنَاهَا فِي الْأَجْنَاسِ⁽¹⁾، فَذَلَّتْ ﴿مَا﴾ عَلَى كُلِّ مَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ الْأَسْمُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَعَلَى كُلِّ مَا يَنْتَسِبُ إِلَى الْعَبْدِ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ أَوْ أَثَرٍ يَجْرِي عَلَى يَدَيْهِ، وَبِهَذَا الْاسْتِغْرَاقِ تَكُونُ الْمَوَاجَهَةُ أَشَدَّ وَأَبْلَغَ، لِأَنَّهَا تُلْزِمُ النَّفْسَ وَهَذِهِ بِكُلِّ جُزْئِيَّةٍ مِمَّا صَدَرَ عَنْهَا، دُونَ أَنْ يَقُوتَهَا شَيْءٌ.

بِلَاغَةُ اخْتِيَارِ فِعْلِ التَّقْدِيمِ:

آخَرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ التَّعْبِيرَ بِفِعْلِ التَّقْدِيمِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ﴾ - دُونَ (فَعَلْتُ) أَوْ (عَمِلْتُ) مَثَلًا - لِأَنَّهُ اخْتِيَارٌ يُشْعِرُ بَأَنَّ الْعَمَلَ لَا يَزُولُ بِانْقِضَاءِ وَقْتِهِ، بَلْ هُوَ

أَعْمَالُ الْإِنْسَانِ
حَاضِرَةٌ أَمَامَهُ،
لَا تَنْفِكُ عَنْهُ

(1) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/ 131.

مُتَقَدِّمٌ بَيْنَ يَدَيِ الْعَامِلِ يَنْتَظِرُهُ لِيُوَاجِهَهُ بِهِ، وفي ذلك تَهْوِيلٌ وَتَهْيِيجٌ لِلْمُحَاسَبَةِ الدَّائِيَّةِ، فَاِلْمَعْنَى الْعَامُّ لِلْآيَةِ فِي ضَوْءِ دَقَّةِ التَّعْبِيرِ: (عَلِمْتُ كُلُّ نَفْسٍ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الرَّهيبِ مَا أَسْلَفَتْهُ مِنْ أَعْمَالٍ، وَمَا تَرَكْتُهُ، أَوْ خَلَفَتْهُ وَرَاءَهَا، عَلِمَتْهُ عِلْمٌ مُشَاهِدَةٌ لَا شُبْهَةَ فِيهِ وَلَا نِسْيَانَ، فَكَانَتْ حَاضِرٌ أَمَامَهَا، لَا فِكَاءَ مِنْهُ)، وَهَذِهِ الْمَعْنَى لَا تَتَأْتِي مِنَ التَّعْبِيرِ بـ (فَعَلْتُ) أَوْ (عَمِلْتُ)، وَإِنَّمَا يُفِيدُهُ فِعْلُ التَّقْدِيمِ، أَنَّ الْعَمَلَ وَإِنْ فَاتَ زَمَانُهُ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ مُتَقَدِّمٌ لِمُصَابِقِهِ، يَنْتَظِرُهُ فِي الْآخِرَةِ قَدْ سَبَقَهُ إِلَى مُصِيرِهِ.

بَلَاغَةُ الطَّبَاقِ بَيْنَ التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ:

التَّعْبِيرُ بِالطَّبَاقِ بَيْنَ التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿عَلِمْتُ نَفْسٌ مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ﴾ هُوَ مِنْ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ فِي إِحَاطَةِ الْمَعْنَى بِأَقْلٍ لَفْظٍ، فَإِنَّ الْمُقَابَلَةَ بَيْنَ الْفِعْلَيْنِ تُفِيدُ الْاسْتِغْرَاقَ وَالشُّمُولَ، كَانَتْهُ قِيلَ: (عَلِمْتُ نَفْسٌ كُلَّ أَعْمَالِهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، مِمَّا بَادَرَتْ بِهِ، فَفَعَلَتْهُ، أَوْ مِمَّا تَرَكْتُهُ، فَتَرَتَّبَ أَثَرُهُ عَلَيْهَا)، وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ الطَّبَاقِ يُسَمَّى طَبَاقَ الْإِيجَابِ⁽¹⁾، وَإِنَّ مَا قَدَّمْتُهُ النَّفْسُ هُوَ مَا فَعَلْتُهُ فِي حَيَاتِهَا مُبَاشَرَةً، وَمَا أَخَّرْتُهُ هُوَ مَا تَرَكْتُهُ، أَوْ خَلَفْتُهُ مِنْ أَعْمَالٍ جَارِيَةٍ، أَوْ سَيِّئَاتٍ سَبَّبَتْهَا، أَوْ خَيْرٍ اسْتَمَرَ أَثَرُهُ بَعْدَ مَوْتِهَا، فَكَانَ ذِكْرُ الْفِعْلَيْنِ عَلَى وَجْهِ الْمُقَابَلَةِ بَلَاغَةً تُحَقِّقُ الْاسْتِغْرَاقَ التَّامَّ، مِمَّا يُشْعِرُ بَأَنَّ الْحِسَابَ يَوْمَئِذٍ مُحِيطٌ بِكُلِّ جُرْئِيَّةٍ، لَا يَفُوتُهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ فِعْلٍ، وَلَا مَا تَأَخَّرَ مِنْ أَثَرٍ، فَالْمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ تَعْمِيمُ التَّوْقِيفِ عَلَى جَمِيعِ مَا عَمِلَتْهُ النَّفْسُ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [الْقِيَامَةِ: 13]⁽²⁾.

إِفَادَةُ الْاسْتِغْرَاقِ
وَالشُّمُولِ

(1) طَبَاقُ الْإِيجَابِ: هُوَ جَمْعُ اللَّفْظَيْنِ الْمُضَادَّيْنِ فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ، لِيَتَسَيَّعَ الْمَعْنَى وَيُبْلَغَ غَايَةُ الْإِحَاطَةِ.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 173/30.

توجيه عدم تكرار (ما):

إيجاز القول
وتشريك الحكم

جاء التعبير القرآني بعدم تكرار (ما) قبل فعل التأخير، من قول الله تعالى: ﴿عَلِمْتُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ﴾ - مع أن المقام يقتضي تعليق العلم بموصولين - لأن المقصود هو جمع المعنيين في إطار واحد، فجعلت ﴿مَا﴾ الأولى شاملة لما قدمته النفس من أعمال، ولما أخرته من آثار وترك، ثم أضيف إليها فعل التأخير بالعطف، دون تكرار الموصول؛ للدلالة على الاشتراك في الحكم، وكفاية ذكره مرة واحدة، وهذا من بلاغة الإيجاز؛ إذ ليس المقصود تعداد الأقسام تعداداً مستقلاً، بل جمعها في معنى محيط واحد، ولو أعيدت (ما) قبل فعل التأخير؛ لظهر فيه تفصيل وتكرار، وقد جاء المقام يقتضي الإيجاز مع التهويل، فكان ترك الإعادة أبلغ، وفي ذلك أيضاً إشعار بأن ما قدمته النفس وما أخرته كله في حكم شيء واحد، يجمع عليها، ويكتب في صفحتها، لا فرق في المسؤولية بين ما عجلته، وما تركته يجري بعدها.

بلاغة الكناية:

توسيع دائرة
المسؤولية

التعبير بقول الله تعالى: ﴿مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ﴾ هو من أساليب الكناية البليغة، فهي كناية عن صفة الإحاطة التامة بالعمل، وشمول الحساب للقديم والحديث، أي: كناية عن شمول العلم ودوام الأثر، فالجملة كناية عن جميع أعمال الإنسان وتبعاتها، مما فعله مباشرة في حياته، ومما تركه، فجرى أثره بعده، فقوله: ﴿مَا قَدَّمْتُ﴾ كناية عن الأعمال المباشرة، ﴿وَأَخَّرْتُ﴾ كناية عن الأثر المستدام من خير أو شر، كالعلم الذي ينتفع به الناس، أو البدعة التي يقتدى بها، أو الظلم الذي يستمر أثره، فهي كناية تجمع الإيجاز مع الإحاطة بكل ما يلحق الإنسان من عمل أو أثر، وهي أبلغ في التهويل؛ لأنها تثير في النفس معاني متعددة، فيشتد الخوف من اتساع الحساب، وتشعب تبعات.

إفصاخ
بالاستغراق،
بعد استعارة
الإخضرار

سر اختلاف التعبير:

اختلف التعبير بين قول الله تعالى هنا: ﴿عَلِمْتُ نَفْسٌ مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ﴾، وقوله تعالى في سورة التَّكْوِيرِ: ﴿عَلِمْتُ نَفْسٌ مَا أَحْضَرْتُ﴾ ﴿التكوير: 14﴾، مع أن المقصود واحد، وذلك أن من بلاغة القرآن تخصيص كل سياق بما يناسبه، ففي سورة التَّكْوِيرِ كان الحديث عن الأهوال المشاهدة من لدن ابتداء نَفْخَةِ الصَّعَقِ، إلى انتهاء تلك المقامات بتسعين الجحيم وإزلاف الجنة، أي: إدناؤها لإدخالها، وجيء بتلك الأخبار معطوفة بالواو المقتضية للجمع، حتى كأن تلك المقامات قد عبّر عنها بلفظ واحد، وتحصّلت حاضرة للتصور الذهني؛ ناسب ذلك تقدير الأعمال المترتب عليها الجزاء حاضرة، والعبارة عنها بما يحصل ذلك، فقيل: ﴿عَلِمْتُ نَفْسٌ مَا أَحْضَرْتُ﴾ ﴿التكوير: 14﴾، وكأنه قد قيل: (إذا حضرت هذه الأهوال مدركة للعيان حضرت أعمالكم بالتذكير لها، ومطالعتها مكتوبة محصورة في الصحف التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة).

أما سورة الانفطار؛ فجاء التعبير فيها بقوله تعالى: ﴿عَلِمْتُ نَفْسٌ مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ﴾، بعد سورة التَّكْوِيرِ لدفع توهم أن موضع التَّكْوِيرِ لم يفصح بذكر أعمال الخلائق؛ فجاء موضع الانفطار بما يشبه الحصر للأعمال من المقدم والمؤخر، وبذلك يكون الترتيب القرآني لسور القرآن مؤدياً للمعنى المراد؛ إذ جاءت سورة الانفطار بعد سورة التَّكْوِيرِ⁽¹⁾.

الفروق المغمية:

الانفطار والانشقاق:

فَطَرَ الشَّيْءَ، أي: شَقَّه شَقًّا، فيه تَفْطَحُ وتَفْلُقُ، يُقَالُ: فَطَرَ الْبَيْضَةَ؛

(1) الغرناطي، وملاك التأويل، ص: 504.

انفطار السماء
إعلان عن بداية
أحداث الساعة
الكونية

إذا فلقها من أعلاها، فانفتحت، ومنه: فطره الإنسان، أي: بداية خلقه وتكوينه على أصله الأول؛ لأنه ابتدئ بشق من عدم إلى وجود⁽¹⁾، فانفطار السماء يعني أنها تشققت، وتفلقت انفلاقاً فيه تفرق وانصداع، غير مصحوب بضجيج أو انهيار عنيف، بل تصدع مهيب يجري بانفتاح منظم، يظهر فيه أثر التدبير الإلهي، ولهذا جاءت في سورة تظهر أهوال الآخرة بصورة تأملية، يعقبها توبيخ للإنسان على غروره بربه.

أما شق الشيء؛ فمعناه: فصله تمزيقاً وانهداماً، وغالباً ما يدل الشق على قوة وصوت وامتداد في الانفصال، يقال: شق الطريق، وشق الثوب، وكل ذلك يوحى بتقطيع مصحوب بعنف وظهور جلي⁽²⁾، فانشقاق السماء يعني أنها تشققت تشققاً ظاهراً واسعاً يتضمن تهديماً كبيراً وتصدعاً قوياً؛ ولهذا جاءت في سياق يظهر تجاوب السماء والأرض لأمر الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: 2]، أي: استجابت، وطاعت.

فالانفطار أدل على تصدع يصحبه تفرق وانفراج في البناء الكلي، بخلاف الانشقاق الذي قد يدل على فتق متصل، فكان قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ يُصَوِّرُ مَشْهَداً مهيباً لانهدام نظام السماء، بانشقاقها شقاً مريعاً، يُبدد انتظامها، ويخل بتماسكها؛ إيماناً ببداية الانقلاب الكوني الذي يمهّد للبعث والجزاء؛ وأن الانفطار هنا ليس مجرد شق، بل هو تفكك في بنية السماء يدل على زوال قوامها، وأنه من مظاهر التبدل الكوني الذي ينبئ عن دنو الساعة.

فقلوه: ﴿انْفَطَرَتْ﴾ إذا: (انشقت، وتصدعت على وجه يذهل الأبصار، وينسف ما كان مستقراً في وهم الإنسان من ثبات السماء ودوامها)، وهذا المعنى ظاهر في الدلالة السياقية للسورتين، فالانفطار في سورة الانفطار جاء بصفة تمهيدية لبقية الآيات، كأنه تصوير لمقدمات الهول الكوني، الذي تتبّع مشاهد البعث والحساب، فجاء قوله: ﴿انْفَطَرَتْ﴾ ملائماً لهذا التدرج الرهيب الصامت، ولذا تتابع بعده: انتشار الكواكب، وتفجير البحار، وبعثرة القبور.

وأما (الانشقاق) في سورة الانشقاق؛ جاء بلهجة خاشعة عابدة، فقد وصفت السماء

(1) الخليل، العين، وابن سيده، الحكم، والزبيدي، تاج العروس: (فطر).

(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن سيده، الحكم، والزمخشري، أساس البلاغة: (شق).

بأنّها (أذِنَتْ لربّها)، أي: خضعت، وانقادت، فالانشقاق هُنا ليس مُجَرَّد حَدِيثٍ كونيٍّ، بل طاعةٌ كونيّةٌ، وكأنَّ السَّماءَ تُعَلِنُ خضوعَها لله بانْشِقَاقِها طَواعيةً.

الانتثارُ والانكدارُ:

الانتثارُ يأتي من أصلِ الفعلِ: نَثَرَ، يُقَالُ: نَثَرْتُ الشَّيْءَ؛ إِذَا فَرَّقْتَهُ، وَفَرَّقْتَ أَجْزَاءَهُ، ومنه: نَثَرَ الدَّرَّ، وَنَثَرَ الرَّمَادَ، أَي: بَعَثَهُ مِنْ تَجْمَعٍ إِلَى تَفَرُّقٍ، وَالنَّثْرُ: رَمِيكَ الشَّيْءَ بِيَدِكَ مَتَفَرِّقًا⁽¹⁾، فانتثرتِ الكواكبُ، أَي: تَسَاقَطَتِ مُتَفَرِّقَةً مُنَحَلَّةً النِّظَامَ، بَعْدَ مَا كَانَتْ مُنْتَظِمَةً فِي مَدَارٍ وَاحِدٍ، فَفَقَدَتِ نِظَامَهَا الَّذِي كَانَ يُظْهِرُ، فِي بَهَائِهَا السَّمَاوِيِّ، وَلِذَا فَالانتثارُ يدلُّ على تَفَرُّقٍ واضطرابٍ فِي جِهَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ جِهَاتٍ كَثِيرَةٍ، مَعَ اخْتِلَالِ النَّسَقِ وَانْتِقَاضِ الرَّبِطِ، وَهُوَ مَلَأْتُمْ تَمَامًا لِسِيَاقِ سُورَةِ الْإِنْفِطَارِ، الَّتِي تَصِفُ الْمَشْهَدَ الْكَوْنِيَّ بِتَصْوِيرٍ تَدْرِيجِيٍّ مِنَ الْفَوْضَى وَالْإِنْحِلَالِ، لِيُسْتَكْمَلَ بِذِكْرِ الْبُعْثِ وَالْحِسَابِ.

أَمَّا الْإِنْكَدَارُ؛ فَهُوَ مِنْ أَصْلِ الْفَعْلِ: كَدَرَ الْمَاءُ أَوْ اللَّوْنُ؛ إِذَا تَغَيَّرَ صَفَاؤُهُ، فَصَارَ مُعْتَمًا⁽²⁾، وَانْكَدَرَ الشَّيْءُ: أَظْلَمَ، وَتَعَكَّرَ، وَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ، وَالْكَدَرَةُ مِنَ الْأَلْوَانِ: مَا نَحَا نَحْوَ السَّوَادِ وَالْغُبَرَةِ⁽³⁾، فَانْكَدَرَتِ النُّجُومُ، أَي: زَالَ ضِيَاؤُهَا، وَاسْتَحَالَ سَقُوطُهَا فِي ظُلْمَةٍ وَبَهْتَانٍ، وَذَكَرَ ابْنُ فَارِسٍ أَنَّ مَعْنَى (كَدَرَ) الْكَافُ وَالذَّالُ وَالرَّاءُ أَصْلَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى خِلَافِ الصَّفْوِ، وَالْآخَرُ عَلَى حَرَكَةٍ⁽⁴⁾، وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ أُخْرَى عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَفْلَاكِهَا، وَتَرَحُّزِهَا عَنْهَا، فَهِيَ قَدْ خَفَتْ ضَوْوُهَا، وَانْطَمَسَ جَمَالُهَا، وَهِيَ تَبَدَّدَتْ عَنْ أَفْلَاكِهَا، وَهَذَا مُنَاسِبٌ لِسِيَاقِ سُورَةِ التَّكْوِينِ؛ إِذْ تُصَوِّرُ الْكَائِنَاتُ

(1) الخليل، العين، وابن سيدة، الحُكْم، والرَّيْدِي، تاج العروس: (فطر).

(2) الخليل، العين: (كدر).

(3) ابن سيدة، الحُكْم: (كدر).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كدر).

بِلَاغَةُ الْإِنْثَارِ فِي
تَصْوِيرِ مَشْهَدِ
الْكَوَائِبِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ

الكونيَّة في حَوْفٍ ودُّعَرٍ وفَهْرٍ كونيٍّ عارِمٍ؛ يناسبه أن تتكدَّر النجومُ إيدانًا بزوالِ عالمٍ كان فيها الضياءُ والهدايةُ.

وبذلك يكون كُلُّ لَفْظٍ قَدْ وُضِعَ في سياقِهِ الْمُنَاسِبِ، فـ ﴿أَنْتَثَرْتُ﴾ في سورة الانفطار تُؤدِّي مَعْنَى انْحِلَالِ نِظَامِ الْكَوَكِبِ وانْفِرَاطِ عِقْدِهَا، فجاءت موافقةً لِسِياقٍ يُريدُ إرخاءَ الهَوْلِ في نَفْسِ السَّامِعِ، وتَفْكِيرِهِ في نِهَايَةِ الْأَمْرِ، وتَرْكِ الْإِنْسَانِ بَيْنَ مُوَاجَهَةِ لِنَفْسِهِ وَرَبِّهِ، و﴿أَنْكَدَرْتُ﴾ في سورة التَّكْوِينِ فيها إِشْعَارٌ بِانْطِمَاسِ نُورِ النُّجُومِ، وَذَهَابِ ضِيَائِهَا، فَالنُّجُومُ أَوْ الشُّمُوسُ هِيَ مَصَادِرُ الطَّاقَةِ الْكَوْنِيَّةِ، وَكَأَنَّ هَذَا التَّعْبِيرَ دَلٌّ عَلَى انْطِفَاءِ الْعَالَمِ فِي انْهِيارٍ تَامٍ، مِمَّا يَشْتَدُّ تَأْثِيرُهُ عَلَى السَّامِعِ، الَّذِي يُصْغِي لِتَصَوُّرِ خَاتِمَةِ الدُّنْيَا بِوَجْهِ مُظْلَمٍ لَا مَهْرَبَ فِيهِ.

الْقُبُورُ وَالْأَجْدَاثُ:

لَيْسَتْ الْقُبُورُ كالأَجْدَاثِ، وَإِنْ اشْتَرَكْتَا فِي دَلَالَةِ الْمَدْفَنِ، فَالْقُرْآنُ لَا يُكْرِّرُ لَفْظًا لِمَعْنَى يُمْكِنُ أَنْ يَكْتَفَى لَهُ بِمُرَادِفٍ، بَلْ يَمُرُّ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ حِينَ تَخْتَلِفُ زَوَايَا النَّظَرِ، وَالْهَدَفُ التَّصَوِيرِيُّ أَوْ الْإِيْقَاعِيُّ أَوْ النَّفْسِيُّ، فَالْقَافُ وَالْبَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى غُمُوضٍ فِي شَيْءٍ وَتَطَامُنٍ، مِنْ ذَلِكَ: قَبْرُ الْمَيِّتِ، يُقَالُ: قَبِرْتُهُ أَقْبَرُهُ⁽¹⁾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾⁽²⁾، فَالْقَبْرُ: هُوَ اسْمٌ لِلْمَوْضِعِ الْمَعْرُوفِ مِنَ الْأَرْضِ، الَّذِي يُقْبَرُ فِيهِ الْإِنْسَانُ، أَيْ: يُوَارَى فِي الْأَرْضِ⁽³⁾، وَغَالِبًا مَا يَرِدُ لَفْظُ الْقَبْرِ لاعتباره مَوْضِعًا خَارِجِيًّا مُحَسَّوسًا؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي سُورَةِ الْإِنْفِطَارِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾؛ لِيُصَوِّرَ انْكِشَافَ مَا فِيهَا، وَانْقِلَابَ حَالِهَا ظَاهِرًا بَعْدَ بَاطِنٍ، كَمَا تُبْعَثَرُ التُّرْبَةُ لِيُكْشَفَ مَا تَحْتَهَا، و﴿بُعْثِرَتْ﴾ فِيهَا مَعْنَى الْقَلْبِ وَالتَّفْتِيهِ وَالْفُضْحِ، فَالْمَشْهُدُ هُنَا يُظْهِرُ أَهْوَالَ الْبَعْثِ مِنْ جِهَةِ انْكِشَافِ الْمَسْتَوْرِ، لَا الْخُرُوجِ مِنْهُ فَحَسَبَ.

أَمَّا الْأَجْدَاثُ؛ فَمُفْرَدُهَا الْجَدَثُ، وَالْمُرَادُ بِهِ الْقَبْرُ، وَجَمْعُهُ أَجْدَاثُ⁽³⁾، وَيُطْلَقُ فِي الْاسْتِعْمَالِ عَلَى أَشَدِّهَا عُمَقًا أَوْ خَفَاءً، أَوْ يُقَالُ: هُوَ أَكْثَرُ؛ مَا يُطْلَقُ عَلَى ذَاتِ الْقَبْرِ فِي بَاطِنٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قبر).

(2) الخليل، العين: (قبر).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جدث).

الأرض، وفيه دلالة على مَوْضِعِ الدَّفْنِ في باطنِ الأرض، لا على سَطْحِهَا، ولهذا جاءَ في سورة يس: ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: 51]، فالسِّيَاقُ هنا يُصَوِّرُ لحظةَ الانبِثَاقِ المفاجِئَةِ لِلْبُعْثِ، خُرُوجًا سَرِيعًا من أعماقِ الأرض، كأنَّهم يَنْسِلُونَ انْسِلَالًا خَفِيًّا سَرِيعًا، ووردَ في سورة القمر كذلك: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ [القمر: 17]، وهنا التشبيهُ يَقْوِي المعنى الصَّوْرِيَّ للكثرةِ والدُّعْرِ والانبِعاثِ من طَيِّ الخفاءِ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والستون،
سورة النَّازعات من الآية 27 إلى سورة الأعلى الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والستون، سورة النَّازعات من الآية 27 إلى سورة الأعلى الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغامي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2026.
مج. 66، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك: 978-9948-643-45-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 66: المجلد السادس والستون، سورة النَّازعات من الآية 27 إلى سورة الأعلى الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-643-45-6

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-6448894 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"